الاحتفالات الجماعية وبعض الأشكال الثقافية المصاحبة في مجتمع الغوص

الجـــزء الثاني



تـأليـف

د. كلثم علي غانم الغانم

الاحتفالات الجماعية وبعض الأشكال الثقافية المصاحبة في مجتمع الغوص

الجـــزء الثاني

مظاهـر الحياة الاجتماعية والثقافية أثنـاء موسـم الغوص

تأليف : د . كلثـم علي غانم الغانـم

الاشراف العام

قسم الدراسات والبحوث

بإدارة الثقافة والفنون

٣٩٤٫٦٠٩٥٣

كلثم على غانم الغانم

الاحتفالات الجماعية وبعض الاشكال الثقافية المصاحبة فى مجتمع الغوص/ تأليف كلثم على غانم الغانم .ـ الدوحة: ادارة الثقافة والفنون بوزارة الاعلام، ١٩٩٧.

١٤٠ ص ،مصور ، ٢٤ سم

ايداع : ١٩٩٧/٤٩

الرقم الدولى (ردمك) ٢ - ٢٨ - ٢٠ - ٩٩٩٢١

أ. العنوان

تصميم الغلاف : علي الشـــريف

إهــــداء

اهــدي هذه الدراسة إلى رجــال الغوص الأشداء الذين عانوا مشقة البــحث عن لقمة الرزق في أعماق المجــهــول . وإلى ســيــدات المجــتــمع الصـــابرات المنتظرات بهمة عالية ونفوس أبية عودة الأحباب من رحلتهم الخطــرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الإدارة

يسر إدلرة الثقافة والفنون بوزارة الإعلام والثقافة ، أن تضع بين القارئ الكريم الجزء الثاني من دراسة «**الاحتفالات الجماعية وبعض الأشكال الثقافية المصاحبة في مجتمع الغوص**» وذلك ضمن مطبوعاتها الكثيرة، التي تراعي فيها ذوق القارئ، وطرح الأفكار، التي ترتقي بذوقه وحسه وضمن عنايتها بنشر التراث القطري وصونه من الضياع والاندثار.

وإدارة الثقافة والفنون، إذ تقدم هذه الدراسة ترجو من الله، أن تؤتي جهودها، بثمارها الطيبة، وتعد القارئ الكريم، أن تقدم له، كل ما يرضيه، وما يرفع من شأن الأدب والعلم والثقافة والتراث في قطر .

ولقد دأبت هذه ا لإدارة، منذ نشأتها على تقديم الأدب الجيد، الراقي، للمواطن القطري، وذلك لتأخذ بيده، في سبيل الارتقاء بحسه، وبذوقه الأدبي وبمستواه العلمي والفكري، وأن ترعى المبدعين بنشر أعمالهم الجيدة، وتعميمها للجميع لتكون مرآة صادقة للابداع القطري.

فعكفت على نشر دواوين الشعر النبطي والدراسات الادبية والتراث وباقة جميلة من قصص الأطفال، كما عملت على تنظيم المسابقات الأدبية المختلفة التي كان من ثمارها كتاب «٧ أصوات في القصة القطرية الحديثة».

ونحن إذ نوالي جهودنا، في هذا المضمار، فإننا نرجو أن نحوز على رضا القارئ، وأن نجد منه الحماس، والتعاون، ونسأل الله تعالى العون والتوفيق.

إدارة الثقافة والفنون

المحتويات

مقدمة

يتضمن الجزء الثاني من دارسة الاحتفالات الجماعية في مجتمع الغوص شرح دقيق ومفصل للعلاقات الاجتماعية والحياة الثقافية في مجتمع السفينة والظروف والملابسات المصاحبة لها. كذلك وصف وتحليل للحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسكان أو لمجتمع البر أثناء موسم الغوص، وكذلك يضم هذا الجزء شرح تفصيلي لاستعدادات النساء لعودة الغواصين من موسم الغوص أو ما يسمى (بالقفال)، والذي تجري بمناسبته طقوس واحتفالات شعبية يمارسها السكان وخصوصاً القطاع النسائي، الذي كان يمثل الشريحة السكانية الأساسية الموجودة في البر أثناء غياب الرجال المتواجدين على ظهور سفن الغوص العديدة، والتي كانت هي مقر أو مسكن معظم الذكور البالغين طوال فترة موسم الغوص. وتشهد تلك السفن العديد من صور الحياة وأنماط العلاقات الانسانية والأشكال الثقافية، في حين تمارس النساء الحياة بشكل طبيعي في المنازل والأحياء السكنية في المدن والقرى المتناثرة على السواحل.

ومن الأمور المدهشة ان يصبح مجتمع البر أثناء غياب الرجال في موسم الغوص خاضعاً لتأثيرات وأنشطة النساء الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فغياب معظم الرجال ألقى على عاتق النساء اعباء رعاية أسرهن والعناية بالأطفال وكبار السن والسعي لكسب القوت، وتوفير المياه.. إلخ من الظروف المعيشية.

كما أن المجتمع لم يعدم في كل الأحوال وجود أنشطة اجتماعية وثقافية حتى في فترة الركود تلك، والتي أرتبطت أساساً بظروف موسم الغوص وأزمنة العودة من البحر. وبناء على ذلك فإن هذا الجزء يتألف من أربعة فصول، الفصل الأول هو عباره عن تصوير للعلاقات الاجتماعية وصور الحياة الثقافية على ظهر السفينة، أما الفصل الثاني فهو يشرح الظروف والأنشطة الموجودة في البر أثناء موسم الغوص، ويتم فيه تحليل دور المرأة الاقتصادي والثقافي في مجتمع البر. أما بالنسبة للفصل الثالث فإنه

يصور طبيعة الاستعدادات النسائية لموعد عودة الغواصين. وفي الفصل الرابع يتم شرح الطقوس والممارسات الشعبية التي تمارسها النسوة من أجل الإسراع بعودة سفن الغوص.

ونرجو بذلك أن نكون قد قدمنا اسهاماً متواضعاً في توثيق وحفظ وتحليل مكونات الحياة الثقافية والاقتصادية في منطقة الخليج العربي .

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية والثقافية على ظهر سفن الغوص

شهدت الحياة على ظهر السفينة العديد من الظواهر الاجتماعية وأنماط من العلاقات أو صور التفاعل الاجتماعي، وكذلك العديد من صور الحياة الثقافية التي كانت تميز أسلوب أو شكل الحياة في سفن الغوص في المنطقة. وفيما يلي شرح تفصيلي لمظاهر تلك الحياة.

أولاً : العلاقات الاجتماعية على السفينة :

كان هناك مستويين من العلاقات على ظهر السفينة علاقات تربط ما بين بحارة السفينة. وعلاقات تحددها طبيعة السلطات ما بين النوخذا والبحارة .

العلاقات ما بين البحارة:

لقد كانت سمة التعاون هي السمة الغالبة على شكل العلاقات الاجتماعية في السفينة. والتي تبرز بشكل واضح أثناء تأدية الأعمال المختلفة طوال اليوم. مع ذلك فهي لا تنتهي بانتهائهم من تلك الأعمال حيث تبرز في ظروف وملابسات أخرى سوف يتم ذكرها.

فبعد ان يأمرهم النوخذا بالتوقف عن الغوص، يقومون بغسل سطح السفينة وإدخال المحار إلى الخن. ثم يصلون صلاة المغرب جماعة، ويجلسون ينتظرون الطعام. وبعضهم تفوته تلك الوجبة لأنه منهمك في أعمال أخرى مثل نزف المياه (اليمه) من خن (اليمة). ولا يخفى الدور الذي تلعبه وحدة المصير في زيادة مظاهر التعاون تلك في سبيل الحفاظ على السفينة وصيانتها أولا بأول، وبالتالي المحافظة على أرواحهم.

من ضمن تلك المظاهر المحافظة على مياه الشرب عن طريق الاقتصاد الشديد في الشرب من «الفنطاس». حيث كان نصيب الفرد كوب واحد من الماء طوال اليوم رغم الحرارة الشديدة التي تتميز بها المنطقة في فصل الصيف. فكانوا يستخدمون الغطاء الذي يحيط بثمره «النارجيل» ويسمونه «قبعة» - وبها فتحات يربط فيها خيط - كإناء يشربون به من الفنطاس، وتستخدم «كمقياس» للشرب عل ظهر السفينة حفاظا منهم على الماء الثمين وهم في عرض البحر. مع ذلك فإن المياه تقل ويفرغ الفنطاس نظرا لبقائهم فترات طويلة في عرض البحر بعيدا عن مصادر المياه العذبة لذلك شاع بينهم هذا المثل «قبعة كملت فنطاس» وهو يضرب للشيء الذي يفرغ رغم الاقتصاد بسبب تكرار الأخذ منه.

وكان ذلك من ضمن اهتمامات النوخذا ويوضح مدى قدرته على التحكم في مجريات

الامور فهو يراقب كل شيء ويحدد مستويات الاستخدام في كل الامور المتعلقة بالسفينة ومن عليها.

وهناك مظاهر أخرى تجري على ظهر السفينة من ضمنها اداء الصلوات المفروضة. وكانوا يصلون صلاة الفجر والمغرب والعشاء جماعة ويشارك بها كل الطاقم، اما الصلوات التي تتخلل يوم العمل مثل صلاة الظهر والعصر فإن كل مجموعة من البحارة تنتهي من دورها في العمل وتصعد إلى سطح السفينة تقوم بأداء الصلاة، وبعضهم يؤدونها جماعة وبعضهم بشكل منفرد، في أثناء الفترة التي يتبادلون فيها الادوار.

وفي بعض الاحيان ونظرا لكبر عدد الطاقم لا تتسع السفينة لأداء الصلاة وراء امام واحد في صلاة الفجر والمغرب والعشاء. فينقسمون إلى مجموعتين. وبما أن مكان جلوس الغواصين ونومهم يكون على الفنة، وهو نوع من التكريم والمكانة التي يحضون بها كأحد مكتسبات المهنة التي يمارسونها. فإن صلاتهم تكون في الفنة كذلك. أما الباقين وهم الفئة الأكبر وتشمل السيوب والرضفاء والتبابه فإنهم يؤدون الصلاة وراء امام آخر في «الصدر» أي مقدمة السفينة.

ويسارع الغواصين بأداء الصلاة وتناول الطعام ثم اللجوء إلى النوم بسبب الاجهاد الذي يعانونه طوال اليوم. أما السيوب فهم بالاضافة إلى عملهم الاساسي (وهو سحب الغواصين من القاع) فإنهم يقومون بأعمال إضافية أخرى مثل غسل سطح السفينة وترتيب المحار ونزف المياه من السفينة.. الخ. لذلك فهم لا يرتاحون بعد عملهم من فورهم مثل الغواصين وقد يكون ذلك اجحافا بحقهم، فإذا ما نظرنا إلى واقع حالهم فهم يقفون طوال النهار يراقبون الغواصين ويقومون بسحبهم بدون طعام أو شراب تحت حرارة الشمس اللاهبة. ولا تقف التفرقة عند هذا الحد حيث يمنع عليهم الجلوس أو النوم في «الفنة» التي هي افضل وانظف مكان على ظهر السفينة، وفي بعض الأحيان لا يجد «السيوب» مكانا لنومهم فينامون فوق المحار أو يمسك كل واحد منهم مجدافه وينام.

لقد كانت حياة العاملين في الغوص من الشقاء بحيث لا يتصور المرء كيف كانت تتوفر لهم القدرة على احتمال ذلك القدر من الشقاء والعمل المرهق .

ونتيجة لذلك الارهاق وظروف العمل الصعبة فإنهم يتعرضون لإصابات وأمراض متنوعة

تتنوع حسب المهنة التي يمارسها البحار. فالغواصين تكون أمراضهم مرتبطة بالغوص في الأعماق أهمها الالتهاب الرئوي والسعال وانفجار الاذن وأمراض العيون. والأمراض الجلدية خاصة «السمط» وهو نوع من الالتهابات الجلدية نتيجة البقاء فترة طويلة في المياه المالحة والبقاء بتلك الأملاح حتى بعد الخروج من البحر، فكمية المياه الموجودة لا تكفي للشرب فما بالك بالاستحمام. والسمط يصاب به الغواصون في ايام الحر الشديد والتي تزداد فيها عدد غطسات كل غواص في كل قحمه أو فترة أو دورة لتصل إلى ١٦ تبة أو غطسة. وبذلك يقضي الغواص جل يومه وهو في وسط المياه المالحة خصوصاً إذا ما علمنا أن الغواص يشترك في ثمانية قمحات أو دورات طوال اليوم.

ويعالج «السمط» باليفت. الذي هو عبارة عن مسحوق يتكون من قشور الرمان (اقروف) وقرط وهليليا منقوعة في كمية من الدهن ويحتفظ بها في قبعة، ويقوم الغواص برش هذا السائل على جسده قبل النوم، وكان يفيدهم كثيراً في تخفيف الالتهابات الجلدية. ونظرا لكثرة استخدام ذلك الدواء فإن له تأثيرات على لون اللحية والأهداب حيث يصبح بعض الشعر أبيض اللون. فكانوا يميزون الغواص من غيره من تلك الشواهد التي تدل على أنه كان يستخدم «اليفت والقرّط».[١]

ومن ضمن الأمراض التي كانت تصيب بحارة الغوص مرض يقال له «أبوقشاش» وهو مرض يصيب الفم ومن أعراضه وجع في البطن. وبعد ذلك اكتشفوا أن وضع البهارات «البزار» مع الأرز المطبوخ مع الدبس يخفف عنهم أعراض ذلك المرض ويقلل من الإصابة به.

أما علاجهم الأساسي لأي مرض يصيبهم فكان «الحلول» وهو مجموعة أعشاب أهمها «العشرج» و«الهليليا» وتطبخ في وعاء ثم يصفى ويشربه المريض. وحين لا يشفى المريض بعد أن يشرب العشرج يكون الحل هو «الكي» بالنار. خاصة بالنسبة للإصابات التي يتعرض لها الغواصين مثل انفجار الأذن، كذلك فإن من أهم وسائل الوقاية لديهم عدم الأكثار من شرب الماء خاصة بالنسبة للغواصين. وكان الحناء يستخدم بكثرة كعلاج لتقرحات القدمين لدى بحارة سفن الغوص العمانية خاصة بالنسبة للسيوب.

وعندما يمرض أحد البحارة فإن جميع من في السفينة يحاول مساعدته بما يوجد لديه من أدوية ومن خبرة. ويحمل إلى تفر السفينة أي مؤخرتها. فإذا جاء الصباح وهو لا يزال على

حاله فإنه يوضع في مكان يسمى «صندوق تفر» وتقدم له العناية المتاحة.

وكان بعضهم يتحسن خلال يومين بعد شرب «الحلول» والبعض الآخر تزداد عليه وطأة المرض، لذلك يقرر النوخذا نقله على أول عبره تصل إليهم من البلاد وفي بعض الحالات التي تتأخر فيها العبرة يقوم البحارة بالضغط على النوخذا للعودة بالمريض إلى الوطن. أما إذا قضى نحبه قبل وصول العبرة أو العودة به فإنهم يلزون أي يقتربون من ساحل أقرب جزيرة مثل (داس أو جرنيين أو أزرقوه... إلخ) ويقومون بدفنه في أحدها.

وبالإضافة إلى الإصابة بالأمراض التي تكون في معظم الحالات نتيجة عدم تنوع الطعام الذي يتناوله البحاره، فإن هناك مخاطر عديدة يواجهها الغواصين بالذات مثل التعرض لهجوم الأسماك المفترسة والتي يأتي في مقدمتها سمك القرش (اليريور). فقد كان ذلك النوع من الأسماك يتابع السفن ويقوم بمهاجمة الغواصين أثناء عملهم وخاصة عند صعودهم من القاع إلى سطح البحر. وكانوا يوصون الغواص بإن لا يترك حلقة الديين إذا رأي اليريور حتي يتمكنون من سحبه لأن اليريور يعاود الهجوم مره أخرى فإذا تركها (أي حلقه الديين) فإنه سيبقى وحيدا مع اليريور الذي سيقوم بافتراسه. وبعضهم كان يتم علاجه من الإصابات وبعضهم تكون إصابته مميته. وهي على كل حال حوادث نادره ولا تتكرر كثيرا.

ومن ضمن الاخطار التي يواجهها الغواص أيضا «الدول» وهو حيوان بحرى هلامي لدغاته مؤلمة ويسبب حروقا شديدة. وعلاجها يكون بذر الرماد والملح والمريس[٢] على مكان الحروق، هذا بالإضافة إلى قيامهم باستخدام ملابس واقية تسمى «الشمشول» وهو قد يكون ابيض أو اسود اللون. ويتكون من عدة أجزاء منها غطاء للرأس وغطاء للقدمين وسروال وصدرية. وبذلك تكون معظم أجزاء جسم الغواص مغطاه ولا تظهر إلا عيناه، خوفا من الحروق المميتة التي يسببها الدول.

«لذلك كان الغواصون يحذورن بعضهم البعض من الدول بأبيات من الشعر[٣]»:

هالسنه زاد هوى الدول

يايرٍ[٤] ومتعتي عليكم

حطو عنه لبس وشمشول

وتحملوا عن لا يغاويكم

في الأبيات السابقة يحذر الشاعر من أن تلك السنة قد ازداد فيها عدد الدول ومهاجمته للغواصين ويوصيهم بلبس الشمشول الذي يقيهم من لدغاته المميتة.

فإذا كانت السفينة في حاجة إلى مساعدة سواء كان ذلك من أجل مريض أو مصاب لديها أو بسبب نقص في المياه أو أن السفينة معطوبة أو معرضة للغرق.. الخ. فإن الإشارة المتعارف عليها بين السفن في حال الحاجة إلى المساعدة هي وضع علم أو راية سوداء على صارية السفينة (قطعة قماش أو بشت اسود) ويسمونها «النوف» . وعندما تضع إحدى السفن العائدة مع أسطول الغوص في يوم القفال علماً اسود فإن ذلك يدل على أن أحد بحارتها قد مات. فالنوف لا يرفع إلا في حالة طلب «النجدة» وفي حالة وفاة أحد البحارة.

أما الراية الوطنية فإنها لا ترفع إلا في يوم الدشة وعند القفال اما النوف فهو الأكثر استخداما في أثناء الموسم بين السفن المتنقلة بين الهيرات. خاصة عندما تريد احدى السفن استدعاء أحد العبرات التي تزور الهيرات باستمرار.

وتعتبر الإصابة «بالضر» أو «المضرة» من اشهر الاخطار التي كان يتعرض له البحارة بشكل عام في موسم الغوص وهو من أكثر الأصابات إنتشارا بين البحارة. وذلك المرض مرتبط أساسا باعتقادات شائعة بوجود الجان في القاع وتلبسهم للغاصة مما يعرضهم لأمراض متنوعة فيقوم البحارة بقراءة آيات من القرآن الكريم على الشخص المصاب بالضر. وسنتحدث بتفصيل أكبر حول هذه المعتقدات في الجزء الخاص بالأشكال الثقافية الأخرى على ظهر السفينة.

العلاقة بين النوخذا والبحارة :

لقد تناولنا بالشرح في الجزء الأول من الدراسة السلطات التي يتمتع بها النوخذا والتي تحدد علاقته المهنية بالبحارة والتي من أهم مظاهرها تلك العلاقة الصارمة واختفاء العلاقات الشخصية. فلكي يحتفظ النوخذا بهيبته امام البحارة كان يجلس في معزل عنهم - فوق الكاتل على الفنه - يراقب ويصدر الاوامر ولا يشارك في الاحتفالات والغناء الذي يمارسه البحارة أثناء العمل أو السمر.

كما أوضحنا الفروق النوعية بين أساليب النواخذة في القيادة حسب تنوع نظم التمويل (السلفي والخماس). التي تترتب عليها صلاحيات للنوخذا السلفي لا يتمتع بها النوخذا

الخماس، لذلك نجد ان أكثر حالات العقاب البدني تحدث على ظهر السفينة السلفية.

وقد يلجأ النوخذا إلى الضرب في بعض الحالات التي يرى فيها تهاونا من قبل أحد البحارة أو مجموعة منهم. لذلك كانت العصا دائما بقربه أو تحت المكان الذي يجلس فوقه. خاصة في الحالات التي يكون فيها أحد البحارة مشاغبا وكثير الشجار مع زملائه ويتحدى النوخذا فإن الاخير لا يتوانى عن ضربه وفي بعض الأحيان يأمر باقي البحارة بتكتيفه وربطه بالدقل وتركه هناك لفترة من الزمن. وبعض النواخذه يمارس عقوبات أكثر قسوة حيث يقوم بعضهم بسحب البحار وراء السفينة في وسط مياه البحر. فيقال : يساني به، حيث يقوم بربطه في علاقة أي حبل ويساني به في مياه البحر بواسطة السفينة الضخمة (بوم أو سنبوك) التي تسحبه خلفها، حتى أن بعض الغواويص الكبار يتعرضون لمثل ذلك العقاب، واحيانا يربط الغواص في «صلابه» ويجلد.. إلخ. ويجمع الاخباريين على أن النوخذا كان حاكما على السفينة ولا يستطيع أحد من مرؤسيه (عماله) ان يفعل شيئا لمعارضته دون أن يتعرض للعقاب.

لذلك قد يلجأ أحدهم إلى إثارة باقي البحارة ضد النوخذا وعندما يكتشف النوخذا ذلك، وغالبا ما يفعل نتيجة مراقبته الشديدة لأحوال العمال، فإنه يكلف أحد البحارة بالتجسس على البحار المتمرد وان ينقل إليه ما يقوله لباقي البحاره (فلقد كان للنوخذا رجاله المخلصين من بين البحارة والذين يقومون بمهمة نقل ما يدور بينهم له). لذلك فإن النوخذا ينتظر أقرب مناسبة «لليداف» أي العودة إلى البلاد عند ذلك يعطى البحار المشاغب أجرة ويقوم بتسريحه.

هذا وقد تأخذ التمردات شكلا أكبر حيث ينضم إليها معظم البحارة أو كلهم وذلك في حالات معينة تسمى «الشكشكة» أو «الجمبزة». وتحدث في مناسبتين أو في حالتين خلال موسم الغوص. الحالة الاولى تحدث نتيجة تأخر النوخذا في العودة إلى البلاد بعد مرور فترة «أول السنة» - وقد اشرنا إليها في الجزء الأول - أو رفضه اعطائهم «الخرجية» لكي يرسلونها إلى اسرهم في البر الذين تمر عليهم فترة شهرين من غياب رب الأسرة وقد قارب تموينهم من مبلغ «السلف» على الانتهاء. فيقلق العمال ويشكشكون أي يضربون عن العمل نهائيا ويلبسون ملابسهم (كان العمال على السفينة يلبسون الوزار والزنجفره طوال اليوم) ويجلسون يدخنون «القداوه» ويتحدثون. فيسقط في يد النوخذا ويضطر إلى تلبية رغباتهم

وهي من الحقوق المتعارف عليها في قوانين الغوص .

أما الحالة الثانية التي تحدث فيها «الشكشكة» أو «الجمبزة» فكانت ردا على قسوة بعض النواخذة الذين يصل بهم الجشع إلى درجة لا يحتملها البحارة خاصة حين يطلب منهم زيادة عدد التبات أي الغطسات في كل قحمه أو عدد القحمات فترات العمل نفسها مما يستدعي الغوص حتى بعد غروب الشمس بساعة على الأكثر. مما يعرض الغاصة للارهاق الزائد وتكثر بينهم الأمراض والإصابات، وقد يتعرضون للغرق في القاع من كثرة الغطس مع الارهاق. خاصة إذا كان الهير عميق جدا ويحتاج إلى مجهود من الغواص لكي يتمكن من الاحتفاظ بالهواء حتى يصل ويلتقط المحار ثم ينبر أي يرتفع مرة أخرى.

لذلك كان الغواصين يلجأون إلى خداع النوخذا فيغوصون تحت السفينة ويخرجون رؤوسهم من الماء عند أحد جوانبها طلبا للراحة مما يعرضهم للعقاب الشديد في حالة اكتشاف أمرهم . لإن النوخذا يحاسب كل غواص يكون مردوده من المحار قليلا خاصة إذا استمر ذلك منه لعدة أيام .

في تلك الظروف وعندما تزداد قسوة النوخذا ويعزل نفسه تماما عنهم ولا يشجعهم بأي نوع من كلمات التشجيع أو يوافقهم في بعض طلباتهم مثل السمر مع بحارة السفن الأخرى أو على ظهر السفينة.. الخ من العوامل النفسية التي تؤثر على علاقته بهم. فإن البحارة حينئذ يأخذون قرارا بالعودة إلى البلاد متمردين بذلك على سلطة النوخذا ورافضين العمل معه مرة أخرى .

أما النوخذا «الجعدي» فإن أسلوبه المتشدد لا يؤلب عليه البحارة فقط بل «الطواويش» او تجار اللؤلؤ أيضا. الذين قاموا باستئجاره أساسا لكي يعمل على السفينة، فيحاسب عند ذلك حسابا عسيرا من قبلهم لأن البحارة يتمردون عليه، الأمر الذي يؤدي إلى خسارة الطواش لرأسماله الذي قدمه من أجل تسيير رحلة غوص في تلك السفينة وبذلك يفقد النوخذا «الجعدي» عند ذلك سمعته بين التجار ويرفضون استئجاره أو العمل معه مرة أخرى خوفا من تكرار الخسارة نتيجة أسلوبه الخاطئ في إدارة أحوال السفينة وعلاقته مع البحارة.

مع ذلك فإن هناك الكثير من النواخذه الذين تكون علاقتهم جيده بالبحارة ويراعون رغباتهم المعقولة والتي تكون من حقهم ويلبونها لهم، كما يسمحون لهم بالترفيه عن أنفسهم

بالغناء والسمر خاصة في الفترات التي تعبط فيها السفينة أي تتوقف عن العمل في أحد البنادر نتيجة استمرار هبوب الرياح لعدة أيام.

لذلك فإن الحياة على ظهر السفينة كانت عامرة بالعلاقات الإنسانية المتنوعة فيها المنافسة وتقسيم العمل والتفرقة التي ترتبت على ذلك. وهناك البحار الذي يحاول أن يضمن حقوقه والبحار الذي يتملق النوخذا ويتجسس على زملائه، وهناك مجموعات متضامنه او تجمع ما بينها علاقات الدم والمصاهره وهناك فئات أو مجموعات غريبة (اجنبية) وما يترتب على ذلك من تكتلات. كل تلك التنوعات الثقافية تبرز وتشكل نمط الحياة الثقافية على ظهر السفينة .

ثانياً : الحياة الثقافية على السفينة :

تشير المعلومات إلى أن هناك مجموعة من الأنشطة والمظاهر الثقافية التي كان يمارسها العاملين على سفن الغوص وكانت المعارضة بالشعر من ضمن الظواهر الثقافية البارزة على ظهر السفينة. فقد كان أفراد المجتمع يهتمون كثيرا بحفظ الشعر وينتهزون أي مناسبة لكي يستشهدوا ببيت من الشعر أو قصيدة تناسب الحدث. فحفظ الشعر من ضمن المزايا التي يهتم الفرد منهم باكتسابها. أما الصفة المصاحبة لتلك العادة فهي قدرة الفرد على الرد ببيت آخر على من يعارضه بالشعر. ويقال «اللي ما يرد البيت مهب من البيت» أي ليس من جماعتنا من لا يستطيع ان يرد بيت الشعر ببيت آخر. وتحدث معارضات شعرية خاصة أثناء فترة «العباط» أي رسو السفينة في أحد البنادر أثناء هبوب الرياح. لذلك كان بعض النواخذه يفضل أن يكون معه شاعر وأحيانا يتصادف وجود شاعر على ظهر السفينة، فيساهم بقدراته في المعارضات الشعرية بين بحارة السفينة أو مع بحارة السفن الأخرى وأثناء الشيلات خاصة في وقت القفال (إلا أن أهمية وجوده لا تصل إلى أهمية وجود النهام على ظهر السفينة).

فكان الشعراء يبتدعون القصائد والمواويل الجديدة أثناء موسم الغوص، مثلما كان يفعل بعض الشعراء من الغواويص الكبار أو حتى من فئة النواخذه، مثل الشاعر محمد بن عبدالوهاب الفيحاني وماجد بن صالح الخليفي وسعيد بن سالم المناعي وأرحمه بودهيم وعبدالله بن سعد المهندي الملقب بالشاعر ويوسف عبدالله المالكي، وآخرون غيرهم.

كانوا يبدعون الشعر متأثرين بالبيئة البحرية المحيطة بهم. وفي هذا المجال لا يسعنا إلا

ذكر أبيات من رائعة الشاعر ماجد الخليفي التي ابتدعها قبل وفاته والتي جاءت مطابقة لوصفه في الأبيات الشعرية حيث مات غرقا ،والتي يقول مطلعها:

يامن رماني وصاب حشاي نشابه

يذكر حبيب سعى بالشين لاحبابه

سليت لي من جفونك مرهف صارم

لا واعذابي من الصارم وجذابه

إلى أن يقول :

ونيت من هجركم ونه غريق هوى

في غبة لا يرى برّ ولا خشابه[٥]

كانت الحياة الثقافية غنية فلم يقتصر الإبداع على القصائد «النبطية» بل كان هناك النوع المفضل لدى الفنون البحرية وهو الموال. فكان الشعراء يتفننون في إبداع هذا النوع من الشعر. وهذا موال أبدعه الشاعر الشعبي سالم بن سعيد المناعي :

يوطون وطي الحمامة يشوف دلع صفر

لبسو ميادیس[٦] من تحت الجدايم صفر

سلو سيوف اللواحظ شوفهم راعني

وباشتكي يافري من الذي راعني

من غزال بزينة والحسن راعني

قضى الجفا دبرن يمشون دلع صفر

فكانت القصيدة أو الموالة الجديدة تنتقل بسرعة البرق بين سنيار السفن أي الأسطول في مغاصات اللؤلؤ. وعندما تعبر بقربهم سفينة ينهم فيها النهام بموال أثناء جرهم للمجاديف أو عبروا هم بقرب إحدى السفن وبحارتها يبرخون الخراب ونهامهم يغني بموال جديد أو لم يسمعوا به من قبل فإنهم يسارعون إلى حفظة من أجل استخدامه أثناء غنائهم على ظهر سفينتهم أثناء تجديفهم أو بريختهم.. الخ. وكانت هذه الطريقة هي أهم الطرق التي ينتشر بها الموال الجديد فكانت السفن بذلك تأخذ من بعضها أثناء ترافقها بين الهيرات.

ومن ضمن المناسبات التي تهيج فيها قريحة الشاعر مرور السفينة بالبر أثناء موسم

الغوص فتثور أشواقه إلى الأهل والأحباب فهذا الشاعر على بن عيسى يصف مشاعره عندما مر «الفلاحي» - السنبوك الذي كان يركب عليه وهو ملك أحمد بن عيسى المهندي - فقال:

يوم الفـــلاحي يمر البـــر ويعـــدي
مـا يحـسب أني علي الميـمـول ولهـان
حلفت مـا أنســاه دام الهين[7] تنشـدي
ولا قطر ياز[8] لي من غـوص لفـان[9]

أيضا ومن ضمن المناسبات التي يكثر فيها استخدام الشعر مخاطبة النوخذا والشكوى إليه أو وصف أحواله وعلاقته مع البحارة. فيقول الشاعر[10] واصفا مشاعر النوخذا حين يتهاون البحارة في أداء عملهم.

النوخـــذا يأمـــر بالانصـــاف
ويقـــول يامـــالي غـــدو به
قـــومـــوا غـــوصـــوا يامـــلاعين
هذا جـــزاة اللي مـــا خـــذينه

يستخدم هنا الشاعر نموذج معين وهو شخصية النوخذا كموضوع للسخرية من مواقفه تجاه البحارة فهو خائف على امواله ويقسوا علي البحارة طالبا منهم أن يغوصوا أكثر لقاء ما أخذوا من أموال «السلف» في أول الموسم.

ولا يقتصر استخدام الشعر على المرور بالبر أو التهكم على النوخذا. فهناك مناسبات أخرى مثل ان يحلم احدهم بأهله ويعبر عن الحلم بالشعر. فهذه قصة أحد البحارة حلم بإن زوجته قد ماتت غرقا، وان امواج البحر كانت تتقاذفها فترتطم جثتها «بالجسور» - وهو نوع من الصخور البحرية السوداء والحادة جدا- وان لون شعرها قد اصبح بنيا نتيجة بقاء جثتها فترة طويلة وهي تتقاذفها الأمواج. فأوجس شرا في نفسه، فقال هذه الأبيات التي لم يصلنا منها سوى بيتين أو ثلاثة:

مـــسكين ياللي داله[11] في غـــواصـــه
مـا يدري أن البـحـر خرب العـاسـه[12]

فهو يلوم نفسه كيف أنه غافل في غوصه على اللؤلؤ في حين أن زوجته قد خرب البحر جسدها وشعرها. ولقد كان توقعه في محله إذ كانت زوجته قد ركبت في أحد الشواعي متجهة إلى الشمال للقيام بزيارة وغرقت السفينة التي كانت عليها وماتت هي ولم يجدوا جثتها إلا بعد أن القت بها الأمواج إلى الصخور وقد اصبح شعرها بني اللون. وعلم باقي البحارة بموتها وأخفوا عنه الخبر حتى عاد واصبح كلامه عنها حقيقة وليس حلما.

كذلك كان موضوع «الغزل» أو الشعر الغزلي من الموضوعات التي كان الشعراء المحليون يركزون عليها في نظمهم للشعر وكانت فترة الابتعاد الطويلة عن الأهل وظروف المهنة الشاقة التي يمارسونها دافعا كبيرا لازدهار نظم الشعر في هذا المجال.

أنا مرقدي بين التعاريض[١٣] والسكان

وعلى ما يود القلب عيني تراعنه

سرى ليلي كله وما ضوى[١٤] مدمي السيقا

انا والحبيب مرقدي مع هل الفنه

ولقد أثرى الحياة الثقافية في السفن وجود أفراد من بيئات مختلفة، وخاصة البيئة البدوية حيث كانت نسبة كبيرة من أبناء البادية تنضم إلى سفن الغوص أثناء الموسم، فكانوا يمثلون بيئة ثقافية تختلف نوعا ما عن البيئة الحضرية خاصة في مجال الفنون التي كانت تتميز باللحن البطئ والغناء الحزين والذي يعرف باللون الفراقي أو البداوي والذي يصاحب العزف على الربابة أو بدونها ويمارسه البدوي اثناء سير الابل أو قلي القهوة.. الخ. وبما أننا الان نتحدث عن الشعر فسوف نذكر حكاية طريفة عن أحد البحارة من البدو الذين قد يعانون أحيانا من العمل على السفن نتيجة عدم تعودهم على البيئة البحرية فيصابون بدوار البحر. ويسمى عند اهل البحر «هدام» - مع أن هناك كثيرا من الغاصة البارزين من فئة البدو كما سبق وأن أشرنا مثل حكاية «أبو علم» - أما بطل الحكاية هنا فهو بحار بدوي يقال له «حرفاش». وحرفاش كان دائما يصاب بدوار البحر ومع ذلك كان يضطر إلى العمل في السفن لأنه لا توجد مصادر رزق أخرى فكان يبقى راقدا في الظلال ولا يستطيع ان يفعل شيئا نتيجة إصابته بالدوار. فكان البحارة يتذمرون بسببه فهم يعملون وهو راقد ويسخرون منه بسبب ذلك. وبعد أن أسقط في أيديهم قرروا سقيه «الحلول» وهو العلاج الأساسي في السفينة

والبدوي لا يعرف العشرج وعندما سقوه اياه قال هذه الأبيات:

آه واويلاه من شـــــرب الحلول
وان شربتـه حط في كبـدي مـلال
اشـــربه من ذله اليـــزوه تقـــول
ذاك حرفاش قعد في وسط الظلال

فهو يقرر أنه لم يشرب الحلول الكريه الطعم إلا خوفا من سخرية «اليزوه» أي البحارة بإنه دائم الجلوس في الظلال.

والبدو يكرهون البحر والغوص فهم قد اعتادوا على حياة الانطلاق والحرية. والغوص عبارة عن قوانين وعرف وتقسيم دقيق للعمل ومذلة يأنف منها البدوي المعروف بعزة نفسه وعفويته فكانوا يصفون الغوص أو يقولون عنه « الغوص غص بريجه لو فيه روبيات» أي أن الغوص أمر لا يطاق وحتى ولو كانت من وراءه الأموال. فالبدوي يعتبر أن مشاركته في موسم الغوص إنما هو لفترة محدودة يعود بعدها إلى باديته، لذلك لا يتخلى عن بعض المظاهر الشكلية التي كان يتميز بها البدوي ومن أهمها الظفائر الطويلة التي يرفض قصها مثل باقي البحارة الذين يلجئون إلى ذلك حتى لا يضايقهم الشعر أثناء الغوص. أما البدوي فإنه يفضل الاحتفاظ بظفائره وعندما يريد الغوص يلفها في غطاء للرأس خاص لكي لا تضايقه أثناء غوصه لإلتقاط المحار.

ولا تقتصر الحياة الثقافية على تبادل الأشعار فقط فهناك أوقات فراغ يمارس فيها البحارة عدة انواع من الفنون خاصة في ليالي السمر التي تكثر في الايام التي تعبط فيها السفن في أحد البنادر هذا بالإضافة إلى وجود بحارة ينتمون إلى مجلس واحد سواء في أثناء العمل أو أوقات الراحة. حيث تكون العدة على الفنه - الطبول والمراويس - وكلما خرجت مجموعة من البحارة من البحر بعد أن تكون قد انهت دورها في العمل تجلس فوق الفنه ويبدأون بغناء الفن الذي يرغبونه.

ومع ذلك فإن هذا لا يحدث إلا في بعض السفن التي تتوفر بها عدة شروط أهمها أن يكون عدد العمال كبيرا، وجود عدة ونهامان أو أكثر، أن يكون البحارة أو معظمهم ينتمون إلى مجلس أو أكثر اي انهم من محبي وممارسي الغناء، وأن يكون النوخذا متجاوبا مع البحارة وعلاقته جيدة بهم.

نفس الحال يتكرر في الليل بعد الانتهاء من العمل حيث يبدأ دور النهام في الترفيه عنهم ويقوم بعض البحارة بالزفن، والبعض الآخر يلجأ إلى النوم طلبا للراحة. وكانت «فنون الفجري بأنواعها» أهم أنواع الغناء التي كان يمارسها البحارة أنذاك.

كذلك كانت «الحزاوي» أو رواية الحكايات الشعبية أحد أهم وسائل الترفيه لديهم، حيث كانوا يستلقون على سطح السفينة وبعضهم على شبانيكهم جنبا إلى حنب نظرا لضيق المكان ويقوم أحد أفراد الطاقم برواية احدى الحكايات الشعبية. وباقي البحارة يستمعون إليه.

من ضمن الظواهر التي يتميز بها اهل البحر (وأهل الخليج عموما) في تلك الفترة استخدامهم الألغاز حتى في احاديثهم العادية ويتميزون بها. هذا بالإضافة إلى عدة معتقدات كانت تشيع بينهم اقواها واشهرها على الاطلاق ايمانهم العميق بإن الجن يسكنون قاع البحر ولذلك فإن معظم الأمراض والإصابات غير المعروف سببها آنذاك يتم تفسيرها بأنها من عمل الجن. ويطلقون على ذلك اسم «الضر» فإذا لمست الجان أحد البشر اصابه بالضرا أو لقفته ولبسته الزيران فيقال فلان فيه ضرورة أو زيران أو فلان ملقوف.

وكان الغواصون أكثر الفئات تعرضا للضر في موسم الغوص لأنهم يغوصون في الأعماق حسب تفسيرهم فيلمسون احد الجان المتشكلين على هيئة سمكة أو صخرة.. إلخ فيلتبس الغواص ويخرج من القاع وقد تيبست يده ولسانه ولا يستطيع الكلام. فيقوم أحد البحارة بالقراءة عليه بآيات من القرآن الكريم حتى يشفى وبعضهم يشتد المرض عليه فيعالجونه بالأدوية الشعبية المتوفرة لديهم فإذا لم يتحسن يتم كيه بالنار، فإذا لم يفلح هذا ولا ذاك يقومون برفع «النوف» -العلم الاسود - فتأتي العبرة وتعود به إلى البلاد.

ونتيجة لايمانهم الشديد بتلك المعتقدات فلقد اشتهرت من بينهم أسماء لشياطين ومرده وأسماء لبعض الهيرات المسكونة التي يكثر بها عدد الغاصة الملتبسين بالجان ووصل الأمر إلى إلقاء التهمة على بعض السفن بإنها مسكونة.

وكان «بودرياه» أحد اشهر مرده الجن التي يخشاها الغواصين، ويقول بعضهم أنه يسكن قاع الهيرات ويخرج من وراء الحشائش للغاصة فيستضرون. فحسب معلوماتهم فإن الحشائش الموجودة في قاع الهيرات كانت المكان المفضل لسكن الشياطين بالذات.

وهناك من يقول ان «بودرياه» كان يقوم بزيارة السفينة التي تكون راسيه بمفردها على أحد

الهيرات أو تسير منفردة ولا ترافق السنيار بين الهيرات. فيقوم بودرياه بالجلوس على «الدستور» صارية السفينة وينادي على البحارة. ولم يقم أحد الإخباريين بوصف ذلك المارد. فهم يستشعرون الخوف حتى من ذكر الجان.

كذلك كانت السمكة المسكونة من اشهر الأسباب التي تصيب البحارة بالضر حيث يلمسونها بدون علم بإنها جنيه فيتجمدون ويخرجون وهم مشولين تقريبا. والظاهر أنها سمكة مسمومه تلدغ الغواصين عند لمسهم اياها فتصيبهم بشلل مؤقت نتيجة قوة سمها.

أما بالنسبة للهيرات المسكونة فلقد اشتهر هير «الزهره» بذلك والذي تكثر اصابات الغواصين بالضر أثناء غوصهم فيه - وفي الواقع فإن هير الزهرة من الهيرات العميقة يصل إلى ١٣، ١٤، ١٥ باع - كذلك كان هير بولثامه الذي كان من الهيرات الممتازة لكن كانت تكثر فيه الإصابات بالضر، وفي البداية يصيب الغاصة ثم يلحق بالسيوب فإذا رأوا أن الضر قد زاد بينهم فإنهم يهربون منه حيث تقلع السفينة مشرعة من المكان. مع العلم إن هير بولثامه من اشد الهيرات عمقا حيث يصل عمقه إلى ٢٣ باع هذا بالإضافة إلى كونه من الهيرات البعيدة جدا فالسفن تعبر المياه العميقة حتى تتمكن من الوصول إليه.

وبالإضافة إلى الهيرات المسكونة كانت هناك سفن تشتهر بإنها مسكونة وقد بلغت شهرة احدها إلى درجة أن أطلق عليها اسم أم الارواح أو أبو الأرواح وهي جيلبوت كانت ملك ماجد الخليفي واسمها «النابند» ويقولون انه لا يمر موسم دون أن يموت أحد أفراد طاقمها، نتيجة الأرواح التي تسكنها.

إلا أن اشهر حكاية حول الجان وكانت تسكن الخيال الشعبي ويتداولها البحارة حكاية «الجنية ام المنز»(١٥). تقول الحكاية : ان أحد الغواصين نزل إلى قاع البحر لكي يلتقط المحار فوجد جنية على هيئة امرأة جالسة تحت حشائش البحر التي يلتصق بها المحار. وقالت له: لا ادعك تغوص انت وزملاءك حتى تعودوا إلى البلاد وتحضروا منز لطفلي. نبر الغواص واخبر زملاءه بإن في القاع جنية ترفض أن تسمح لهم بالغوص في الهير حتي يجلبوا لطفلها المنز، خاف «اليزوه» وهرعوا إلى النوخذا وضغطوا عليه حتى وافق على العودة إلى البلاد وتلبية رغبة الجنية.

عادت السفينة إلى البلاد وذهب اليزوه إلى السوق واشتروا «المنز» ووضعوا فيه حصير



مجموعة من الغواصين وقد نبروا من قاع الهير

المصدر : مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية

بدلا من الفراش وربطوه بحبال. وعادوا به إلى الهير الذي تسكنه الجنية وكأن هناك من يقودهم إلى المكان الذي توعدتهم فيه تلك الجنية. وجهز الغاصة أنفسهم وعلقوا الديايين في رقابهم وامسكوا بحبالهم ونزلوا إلى القاع والمنز معهم. فوجدوا الجنية جالسة وطفلها في حضنها وهي تهوي(١٦) عليه بهذه الأغنية :

انا من ثمـان سنين في رأس قـرمـه(١٧)
يسـقيّ عليّـه البـحـر ثم يسـيل
انا من ثمـان سنين من مـات عـامـر
حـرّم عليّـه مـا لبـست النيل(١٨)

وعندما انزلوا «المنز» حملت وليدها ووضعته في وسط «المنز» واستمرت في الغناء عليه، والغواصين حواليها يجمعون المحار وهم يراقبونها. وبعد ذلك نبروا إلى السطح وركبوا سفينتهم. وقالوا الآن إرتحنا وتخلصنا من سحرها. ورفعت السفينة شراعها وابتعدت عن المكان.

تلك كانت الحكاية التي يؤمن البحارة بحدوثها ويتداولونها بكثرة فيما بينهم ويعتقدون

بواقعيتها. إلا أنها في جانب كبير منها تعكس الخيال الشعبي، الذي كان أحد سمات الثقافة السائدة حينذاك والتي تؤمن بالغيبيات ايمانا راسخا لا جدال فيه. لذلك كان مس الجان من أكثر الامور التي تثير الرعب في قلوبهم وتبعدهم عن المنطق كثيرا .

فالشعر الذي كانت تتغنى به «الجنية» إنما كان يعكس ظروف الغوص التي يعاني منها الغواصين بالذات حينذاك. مثل قولها «يسقيّ عليّه البحر ثم يسيل» هنا يمكن أن نلمس التعبير المستتر لمشاعر الغواصين أساسا والبحارة عموما بسبب طول الفترة التي يقضونها في البحر يسيل موجة عليهم بين الفينة والأخرى، ما بين مد وجزر، تلك الظاهرة الطبيعية التي تتكرر يوميا وتتأثر بها عملية الغوص.

هذا بالإضافة إلى إن الخيال الشعبي قد جعل الجنية تستخدم أسلوب غناء الإم الإنسية عند تنويمها لطفلها، كذلك قولها «حرّم عليّه مالبست النيل» فتلك الملابس التي تصبغ بالنيل عندما يكلح لونها هي ملابس المرأة الإنسية. فالأبيات الشعرية التي كانت تتغنى بها الجنية هي تعبير عن ظروف ومشاعر بشرية اقتبسها الخيال الشعبي وأضفى عليها بعدا أسطوريا يناسب الحكاية الشعبية السابقة.

وفي الواقع فإن البحارة كانوا كثيرا ما يلجئون إلى خداع النواخذة من أجل العودة إلى البر لزيارة أهلهم وقد تكون تلك إحدى وسائلهم في إجبار النوخذا على العودة.

مع ذلك فإن ايمانهم بمس الجان قد يوحي إلى الكثير منهم بإصابتهم بالضر أي انه قد ينتشر نتيجة الايحاء مثلما رأينا في هير «بولثامه» حيث كان الضر يصيب البحارة ثم ينتقل إلى السيوب وقد يكون ذلك سببه الايحاء فيتوهم الباقين بإن الجان قد لمستهم أيضا. وهذا أمر شائع «حيث يشير بعض الإخباريين إلى أنه كان نادرا ما تعود إحدى رحلات الغوص دون أن يصاب اثنان أو ثلاثة من أعضائها بالضر... » وهذه امرأة من سكان ساحل عمان ترثي حالها وحال زوجها الذي أصابه الضر فذهل عن نفسه وما حوله[١٩] :

فرشت له وابغي يرقد
ياني وديم[٢٠] عند الكوار[٢١]
ياعونة الله كيف يرج[٢٢]
من الضر حتى عيونه صغار

إذ كـان من مظاهر إصابة الشـخص بالضـر الارتعـاش والتـشنج والنسـيـان والذهول.. إلخ. والاعـتـقـاد بقـوة الجن وصل بالنـاس إلى الايمان بإن بإمكانـهم خطف الإنسـان واخذه إلى بلادهم أي بلاد الجن(٢٣). وقصة النوخذا «كنزول» تعبر عن ذلك الاعـتقاد. فلقد كان «كنزول» يتسم بالقسـوة الشديدة على البحـارة ويقوم بتعذيبهم فكرهوه وكرهته الجن أيضا، ونظرا لان الجن لديها قـوى خارقة تفـوق القوى البشـرية فقد قامـوا بخطفه وهو يسـير من قـرية إلى أخرى. وعـاقبوه بإن فرضـوا عليـه القيـام بسقي نخيل غرست حديثا من غـروب الشـمس حتي شروقها كل ليلة إلى أن تثمر. ومن المعروف أن أشجار النـخيـل تحتـاج زمنا طويلا حتـى تثمر. فكان النوخذا كنزول يسـتـخرج المـاء من البئر بواسطة الدلاء الثـقيلة بدلا مـن الثيران. وكـانت مهـمة شاقة جدا على الانسـان أن يقوم بسقي الزرع حاملا الميـاه على ظهره لكي يسـقي مزرعـة كاملة من النـخـيـل. فـمـرت سنوات عـديدة على كنزول وهو يؤدي تلك المهـمـة حـتـى أثمـرت اشـجـار النخيـل فـقامت الجن باطلاق سراحه. وعـاد إلى أهله الذين اعـتـقـدوا أنه قـد مـات أو غـاب ولن يعـود. فشـاعـت بين النـاس عبـارة «كنزول ودوه السـحـار» أي كنزول خطفتـه السحرة. وانـتشـرت على سفن الغـوص وعلى ألسنة الاطفال (خاصة في امارة عجمان والمناطق المجاورة لها)(٢٤).

ولا يقـتـصر ايمانهم على الجان فـقط فـهم يؤمنون بالأحلام وأن ما جاء بهـا سوف يحدث فـعلا لذلك إذا كان الحلم جـيدا فـهم يحتـفظون به لانفسهم حتى يتحقق. ويظهر الايمان بصدق الأحلام في عمليـة فلق المحـار. فمثـلا يحلم أحدهم بإن بـنت فلان قد ركـبت على سفـينتهم زائـرة أما من يمين أو من يسار. عند ذلك يتـوقعون بإنهم سيجدون «حصباه» أثناء فلق المحار عند المجموعة التي تجلس أثناء الفلق فـي الجـهـة التي ركـبت منهـا الفتـاه. ويقـولون أن ذلك يحـدث فـعـلا. ويفـسرون ذلك بإنهم على نيـاتهم وأن الله يعطيـهم على قـدر نيـتـهم «فـالنيـة مطيـة» حـسب قولهم.

ولا تقـتـصر الحيـاة الاجتمـاعـيـة والثـقافيـة على العـلاقـات الإنسانيـة ما بين البحـارة على ظهر السفينة فـهناك علاقات متنوعـة تحدث ما بين سفن الغـوص أثناء ترافقهـا في السنيـار والتجول مـا بين الهـيـرات. كذلك لا تـقـتـصـر تلك العـلاقـات على السفـن المحليـة فـقط بل تـتـسع لـتـشـمل سفن البحرين والكويت وعمـان. ومـا يتخلل تلك العـلاقـات من تبـادل مصـالح وجلسـات سـمر وتبـادل أشعـار واقـتبـاس وتقليد.. الخ فـرضـتـهـا ظروف المهنـة الواحدة والهـدف الواحد والموسم

الواحد. وبإمكاننا القول في هذا المجال ان بحر الخليج خاصة الساحل الغربي منه (الغني بهيرات اللؤلؤ) قد كان بمثابة بحيرة ثقافية متجانسة. وذلك التجانس قد ظهر من خلال صور عديدة للمظاهر والسمات الشكلية التي تميز العاملين في تلك الصناعة، ومن خلال العديد من الظواهر الثقافية والاجتماعية. ويمكننا ان نقدم في هذا المجال تفصيلات أكبر.

كان بحارة السفن يتميزون بصفات شكلية بارزة فمعظمهم يرتدون ملابس واحدة (الوزار والزنجفره) فرضتها ظروف المهنة الواحدة. كما أن فئة الغواصين تتميز في هذا المجال عن الباقين بلبس ملابس تدل على نوعية المهنة التي يمارسونها عل ظهر السفينة، وهي ملابس الغوص (الشمشول) و(الفطام). أيضا يمكن الاستدلال على نوع المهنة من خلال بعض الصفات الجسدية. فالسيوب يتميزون بضخامة الجسد وقوة العضلات نتيجة التجديف وسحب الغواصين، أما الغواصين فيتميزون بالنحافة ورشاقة الجسم والحركة.

وبالإضافة إلى ذلك هناك ظواهر ثقافية يبرز فيها التجانس بشكل كبير نتيجة عدة عوامل أهمها العلاقات المستمرة ما بين سفن الغوص، المحلية والاقليمية، تلك العلاقات التي تظهر في مجالات عديدة سنذكر بعضها.

فمن ابسط العوامل التي كانت تؤدي إلى احتكاك السفن مع بعضها كون ركابها يمارسون مهنة واحدة لذلك فإن الأدوات المستخدمة فيها واحدة، لذلك كثيرا ما يقوم النوخذا بإرسال أحد بحارته أو مجموعة منهم إلى السفينة الراسية بقربه لاقتراض حبل أو أداة أو آلة يحتاجونها في سفينتهم.

وتتم العملية بهذه الصورة. ينادي النوخذا على أحد بحارته ويأمره بالذهاب إلى إحدى السفن الراسية بقربهم لطلب الغرض، ويقوم البحار بتنفيذ الأمر فيقوم بإنزال الكيت أو (البانوش) وهو قارب صغير ويقوم بالتجديف للوصول إلى السفينة الأخرى. أما إذا كان سباحا ماهرا والمسافة قريبة فإنه يلقي بنفسه في اليم ويسبح حتى يصل إلى السفينة المقصودة. وعندما يراه بحارتها يستعدون لاستقباله، وما أن يصعد حتى يسلمه التباب وزارا جافا، ويقوم الغواص بلبسه ويأخذ التباب منه الوزار المبلول وينشره حتى يجف، ويسلم البحار على بحارة السفينة ويتجه إلى النوخذا ويسلم عليه ويجلس بقربه فيسأله النوخذا عن أحوال الغوص لديهم ومن صاحب السفينة وما إذا كانوا يجدون محارا وهل أن أرض (الهير) جيدة عندهم

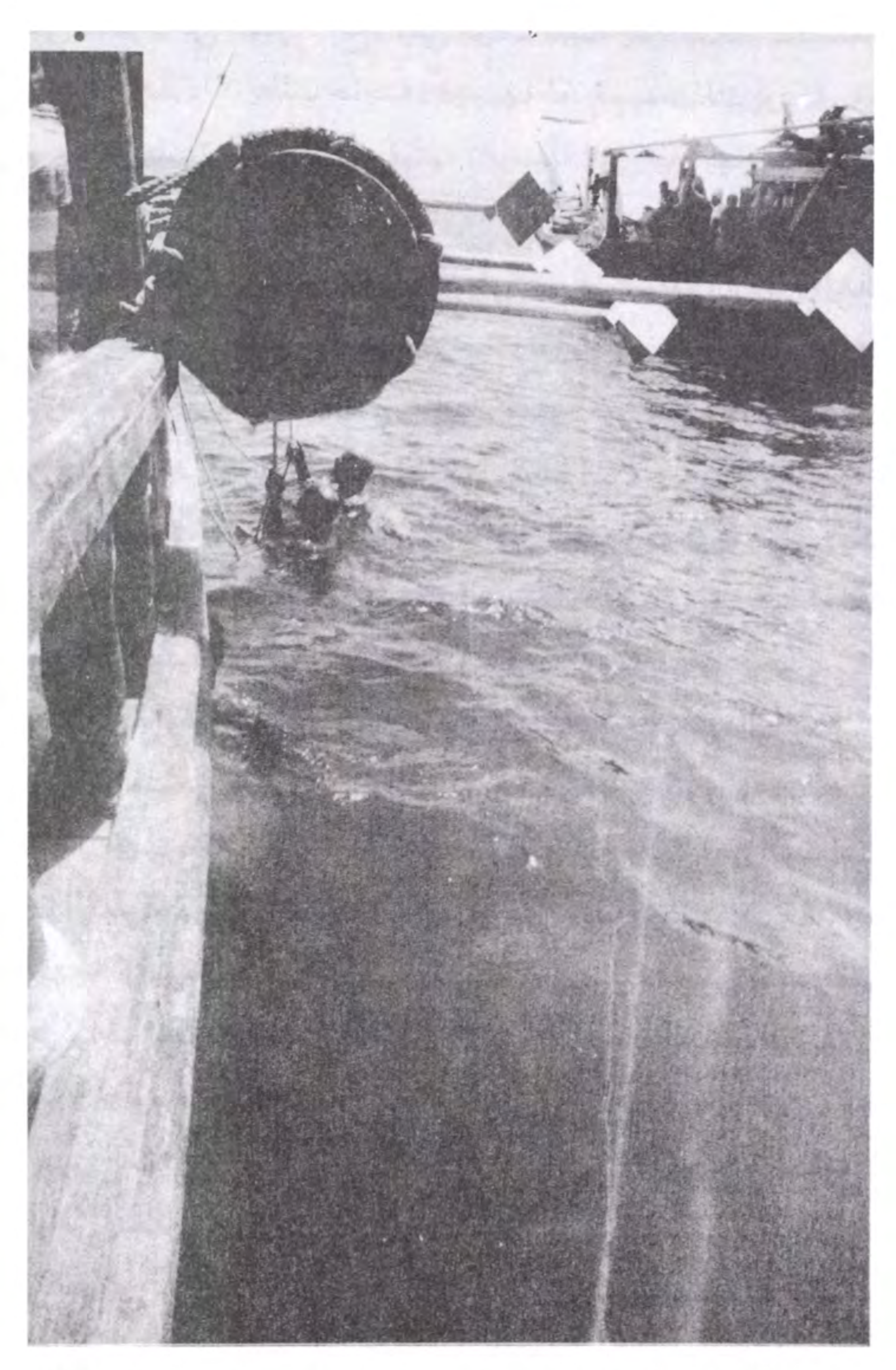
وكم الفترة التي قضوها في الهير.. إلخ. وفي الوقت نفسه يقوم البحار بالاستعلام من النوخذا عن أحوالهم أيضا. بعد ذلك يطلب حاجته، فيلبيها له. ثم بعد ذلك يودعه. ويستبدل الوزار بالآخر خاصة بعد ان جف ثم يعود إلى سفينته بالوسيلة التي جاء بها سواء سباحة أو بواسطة هوري أو بانوش.

تلك كانت أحد الوسائل المباشرة لتبادل المعلومات في موسم الغوص. وقد يحدث تبادل المعلومات بشكل مباشر بين السفن المختلفة. حيث يقوم النوخذا بإرسال بحارته إلى السفينة الاخرى ليخبروهم بأن الهير عندهم جيد وان المحار وفير، فهي بمثابة دعوة ونصيحة وحب الخير للآخرين. وفي بعض الاحيان تقوم إحدى السفن بالاقتراب من سفينة اخرى راسية في الهير منذ مدة -- وهي قادمة لتوها - فيسألونهم عن احوال الهير. وفي الحالة التي يكون الهير غنياً بالمحار يقال أن الهير تبراه فتتسابق السفن إليه وتكاد تحتك ببعضها لذلك يسهل تبادل الاحاديث فيما بينهم ويتبادلون المعلومات حول الهير.

فإذا مرت عدة أيام وهم في الهير وقد جمعوا منه المحار يأمر سردال السنيار برفع الأشرعة ويتجه إلى هير آخر فتلحق به السفن المرافقة له وينتشرون في الهير الجديد ويسألون بعضهم البعض عن أحوال الهير. فإذا قالوا: أن طلعه جيد به كذا وكذا (من السمات والمظاهر التي تدل على جودة الهير) بقوا فيه عدة أيام. وهكذا فإن السفن كانت لا تفقد اتصالها ببعض وذلك لإن حركتها كثيرا ما تكون في شكل قوافل كل قافلة تسمى سنيار فتجد في الهير سنيار للبحرين وآخر للكويت وعمان.. وهكذا ويترافقون بين المغاصات لذلك تسهل عملية تبادل الأحاديث والمعلومات فيما بينهم.

وتتجمع سفن السنيار دائما في مكان واحد حتى ان المؤذن لصلاة العشاء يكون شخص واحد تسمعه باقي السفن ويقيم الصلاة كل بحارة سفينة الصلاة على سطحها. وقد يصل عدد سفن السنيار الواحد إلى ١٥ سفينة. فهم لا يتفارقون ابدا وبذلك هم كالجيران فالسفن مثل البيوت فيتبادلون الزيارات فيما بينهم بعد انتهاء العمل.

كذلك كانت هناك منافسة بين كل مجموعة من السفن. فمثلا إذا تأخرت احدى المجموعات (سنيار) في إحدى الهيرات يشك أحد النواخذة بإن زملاءه قد وجدوا الهير لديهم افضل من



مجموعة السفن وهي مترافقة في الهير والبجارة يمارسون الغوص على اللؤلؤ
المصدر: مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

الهير الذي هم فيه خاصة إذا لم يجدوا شيئا فيسارع بالنتر (أي الاتجاه) إلى الهير الآخر ويقترب منهم ويتبادل الحديث معهم ويسألهم عن أحوال الهير. وتظهر المنافسة أثناء رفو أو تليين حبل الخراب فكل سفينة تتنافس مع الأخرى لدرجة ان بعض السفن تصطدم ببعضها نتيجة ذلك وتحدث مشاجرات كبيرة فيما بينهم.

وأحيانا يتسابقون في البريخة، فما أن يسمع نوخذا إحدى السفن القريبة نوخذا سفينة أخرى يقول : يالله فوق حتى يأمر بحارته قائلا هو أيضا: يالله فوق.

تلك المنافسات تحدث نتيجة عدة عوامل أهمها اثبات الكفاءة والروح البشرية التي تميل إلى المنافسة دائما. فالبحارة يراقبون بعضهم وكذلك النواخذة، فإذا أراد أحدهم أن يبتعد عن مكان المغاص الذي تم جمع المحار منه فإن بحارة السفينة الأخرى لا يسمحون لهم بأن يسبقوهم إلى المكان الجديد فيرفون هم أيضا حبالهم. وتزداد المنافسة في الهيرات التي تتميز بوفرة المحار.

مع ذلك فإن العلاقات الاجتماعية كانت دائمة ومستمرة ما بين السفن رغم المنافسة الاقتصادية وتظهر بعد الانتهاء من العمل. حيث يقوم بعض بحارة السفن بدعوة بحارة السفينة الأخرى لشرب القهوة (وذلك بالطبع بعد مشاورة النوخذا) ولا يستطيع بحارة السفينة الأخرى أيضا الذهاب إلا بعد ان يوافق النوخذا على ذلك فيسمرون مع بعضهم طوال الليل. وفي صبيحة اليوم التالي يعودون للعمل. وكثيرا ما كانت سفن الغوص (خاصة في السنيار الواحد) تتلاصق أو ترسو قرب بعضها في الليل بعد انتهاء العمل ويبدأ البحارة بالتشارع (اى تبادل الأحاديث) فيما بينهم.

هذا وتظهر العلاقات بين البحارة بشكل أكبر اثناء توقف السفن في البنادر نتيجة هبوب الرياح. فيقوم البحارة بالسباحة ما بين السفن لزيارة بعضهم البعض. وفي الليل يقومون باختيار أكبر السفن والتي يكون سطحها نظيفا لا يوجد به محار أو ماء، لكي يتجمعوا بها ويسمرون يغنون الفنون المختلفة.

وفي بعض الأحيان ينزل البحارة من السفن ويسمرون على البر ويتركون السفن خالية. ولقد اشتهر (راس لفان) بإقامة السمرات الليلية أثناء موسم الغوص من قبل السفن التي تغرص في تلك المنطقة، فيتشارعون بالشعر ويغنون «الفجري» وغيره.

من ذلك نجد أن السفن دائمة الاتصال فيما بينها نتيجة تلك العلاقات وتلك الظروف المتشابهة التي تواجهها والتي ظهرت بشكل بارز سواء في عملية الإبحار أو الرسو التي كانت تتم بصورة جماعية بين السفن المختلفة، نتيجة الظروف الخاصة بالمهنة ويأتي على رأسها خوفهم من الإصابة أو الغرق، فكانوا يتجمعون في شكل مجموعات لكي يكونوا قرب بعضهم البعض لمد يد المساعدة عند الضرورة.

هذا بالإضافة إلى عوامل مهمة أخرى ناجمة عن إزدهار صناعة الغوص في القرنين (الثامن عشر والتاسع عشر وحتى ثلاثينيات هذا القرن) وأدت إلى تجانس ثقافة المنطقة الأمر الذي زاد من أمنها واستقرارها الاجتماعي. وساعد ذلك على تأسيس أنظمة سياسية ثابتة بعد قرون عديدة من الفراغ السياسي.

ومن ضمن العوامل التي ساهمت في إرساء صناعة الغوص وبالتالي ظهور ثقافة مرتبطة بذلك النشاط الاقتصادي، كون الغوص على اللؤلؤ في مواسم معينة من أهم الانشطة الاقتصادية التي كان يمارسها سكان المنطقة والتي وفرت دخلا معقولا بالنسبة لهم، وكون معظم الهيرات تقع في نطاق جغرافي واحد، حيث يمكن الوصول إليها جميعا بواسطة الابحار بالسفن الشراعية، مما أعطى ميزة لتلك الهيرات تتمثل في كونها غير مرتبطة بحدود برية محددة يمكن أن تخلق مشاكل ومشاجرات عديدة كما يحصل في البر، فلم يذكر في تاريخ المنطقة حادثة واحدة تمثل معركة حول أحد الهيرات، إذ كانت مشاعا لجميع سفن المنطقة.

وفي الواقع فإن ذلك كان ناجما عن ظروف خارج نطاق تحكم الانسان تتمثل في عدم ضمان توفر اللؤلؤ في الهيرات، لذلك فإن تحديد مناطق معينة أو هيرات معينة لكل شعب أو بلد قد يضر كثيرا بها لأن اللؤلؤ قد يظهر فيها مثلا في هذا الموسم ولا يظهر في الموسم الثاني لسبب أو لآخر لا دخل للإنسان به. لذلك فإن شعوب الخليج اتفقت ضمنا وليس صراحة على أن هيرات اللؤلؤ مناطق مباحة للجميع. من سبق إلى الهير وجمع منه المحار فهو من حقه. وقد أدى ذلك إلى اختلاط السفن في الهيرات. مع أن سفن كل بلد تبحر مترافقة في مجموعات، كل مجموعة تسمى سنيارا يقودها أحد النواخذة المشهورين في البحر - كما سبق وأن أشرنا - إلا إن ذلك لم يمنع من قيام علاقات متنوعة بين سفن الغوص المختلفة.

كما أن هناك عاملا مهما آخر قد ساعد على قيام تجانس أكبر بين المظاهر الثقافية لصناعة الغوص في المنطقة. الا وهو قيام البحارة بالعمل في السفن الخليجية المختلفة. خاصة في البلدان التي لم تزدهر بها تلك الصناعة مثل السعودية والساحل الفارسي والعراق، فكانت هناك عمالة موسمية تفد من تلك البلدان إلى قطر والبحرين بالذات للمشاركة في رحلات الغوص وذلك نظرا لضخامة اسطولهما بالنسبة لباقي دول الخليج وازدهار عمليات تمويل الرحلات لديهما. مع ذلك فإن هناك بحارة من قطر يشاركون في سفن البحرين والكويت والامارات والعكس صحيح أيضا. لقد كان هناك موسما رائجا وفرصا كبيرة للعمل كانت الأيدي العاملة المحلية والاقليمية في أمس الحاجة إليها. لذلك فإن منظر أفواج العمالة الوافدة من الساحل الفارسي ومن قلب الجزيرة (الدواسر، الصلب، الحساوية، النجادة.. الخ) منظرا عاديا قبيل بداية الموسم - كما سبق وأن أشرنا - والذين يقومون بالعودة إلى ديارهم بمجرد انتهاء الموسم وحصولهم على انصبتهم من الارباح.

كل ذلك قد خلق تنوعا ثقافيا في المنطقة. فتجد على السفينة الواحدة جنسيات متعددة تمثل خلفيات ثقافية متنوعة فالبدوي مع الحضري، والفارسي مع العربي. مع ذلك فرغم وجود اختلافات، خاصة في مجال الإقليم الجغرافي، إلا انهم ينتمون إلى دين احد ولغة واحدة وحضارة واحدة. إلا ان ما نقصده هو الاختلافات النوعية في بعض المظاهر الثقافية والتي انصهرت وصبت في ثقافة تلك الصناعة.

فإذا مانظرنا إلى مجال المواويل والأغاني البحرية فإننا سوف نجدها قد تأثرت بالمواويل والهوسات العراقية حسب ما يذهب إليه بعض الباحثين[٢٦]. وازدهرت في المنطقة بعد الاقتباس، وبرز عدة شعراء محليين سبق وأن أشرنا إليهم (وأن قصرنا ذلك على شعراء قطر بسبب مجال الدراسة) في هذا المجال فأبدعوا زهيريات رائعة جدا كان النهامة يتسابقون إلى حفظها لاستخدامها في أعمال تلك الصناعة المزدهرة آنذاك. لقد أدى ازدهار صناعر الغوص على اللؤلؤ إلى ازدهار أشكال ثقافية عديدة برزت خاصة في مجال الفنون والغناء والشعر وفي مجالات اخرى لا مجال هنا لذكرها، وانعكس على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمنطقة.

مع ذلك فرغم التنوع النسبي للخلفيات أو الأصول الثقافية لعمالة الغوص، إلا أن تلك الصناعة قد طورت عالما ثقافيا مميزا لها، وبها، أي لا يظهر بشكله الواقعي إلا من خلال ممارسة تلك المهنة.

لقد كانت الوحدة الثقافية النوعية لصناعة الغوص أهم مظهر تميزت به تلك الحقبة التاريخية التي مرت بها المنطقة. لذلك بقيت آثاره في الموسيقى ومجال الفنون الصوتية فقط واختفت آثاره الإيقاعية أو الحركية التي كانت مرتبطة بالعمل في مجال الغوص ووسائله واساليبه. وبما ان تلك الفنون كانت في عصرها الذهبي فإن فنون البر لم تستطع ان تقتحم مجالها - اي مجال الفنون البحرية - خاصة في مجال أغاني العمل. فظل ذلك الفن خالصا من أية رواسب ثقافية بصورة واضحة، وخاصا بشكل يثير الدهشة ومرتبطاً بمهن معينة. ولم تستطع الفنون الأخرى أن تظهر إلا في مجال الترفيه والسمرات.

ورغم تنوع تلك الفنون ووجود عماله تمثلها (مثل التقسيم ما بين عربي وفارسي وافريقي، وتنوع بيئي مثل البيئة الحضرية والصحراوية والزراعية. والأخيرة يمثلها العمال الحساوية نسبة إلى إقليم الاحساء) مثل فنون الليوه والطنبوره الإفريقية المصدر، والردحات البدوية واللعبونيات بالنسبة للحضر، كذلك في مجال الأدوات الموسيقية مثل الهبان والناي لدى الفوارس، والربابة لدى البدوي، والعود لدى الحضري.. الخ كلها لم تستطع أن تفرض نفسها على فنون البحر (لقد كان استخدامها مرتبط ببيئتها) لقد أفرزت تلك الصناعة فنا خاصا بها توارثته الاجيال مع استمرار ممارسة تلك المهنة[٢٧]. إلا أنه في الوقت الحالي وبعد اندثار تلك المهنة لمدة قد تقرب من الاربعين عاما فإن تلك الفنون ستندثر باندثار حامليها من الإخباريين.

الهوامش

(١) في مجلس المعمر غانم بن ياقوت،الاتحاد الاسبوعي، جريدة يومية، دولة الامارات العربية المتحدة العدد ٥١٥، ١٩٨٦.

(٢) المريس : هو التمر عندما يذاب في الماء فينتج عن ذلك شراب يسمى المريس.

(٣) هذه الاشعار قالها المعمر غانم بن ياقوت في مقابلة اجرتها جريدة الاتحاد الاسبوعي المرجع السابق.

(٤) ياير : جائر.

(٥) خشابه : السفن. كانوا يسمونها الخشب.

(٦) مياديس : جمع ميداس. وكانت النساء يحتذين نوعا من النعال يسمى الميداس.

(٧) الهين : الهجن. اي الجمال.

(٨) ياز : جاز. اي لم يناسبني.

(٩) لفان : اسم هير قريب من الساحل.

(١٠) الشاعر مجهول.

(١١) داله : غافل.

(١٢) العاسه : شعر رأس.

(١٣) التعاريض : خشبتان وراء دفة السفينة «السكان» كان البحارة يقومون بربط الشبناك فيهما. وكان موقعها في مؤخرة السفينة في المكان الذي يسمى «الفنة» وهو افضل مكان علي السفينة. لذلك يفتخر الشاعر بإن مرقده مع اهل الفنة اي الفئة التي تحصل على التكريم على ظهر السفينة وهم النوخذا وباقي موظفيه (السكوني والمجدمي) بالاضافة إلى الغواصين الذين لهم مكانة خاصة أيضا.

(١٤) ضوي : أتى ليلا . القاموس المحيط ص ١٦٨٤.

(١٥) منز : مهد الطفل وهو عبارة عن قفص مصنوع من جريد النخيل. وتشتهر منطقة الاحساء بصناعته.

(١٦) تهوى : تغني عليه «الهلولو» وهي أغاني النوم للطفل.

(١٧) قرمه : الصخرة الكبيرة .

(١٨) النيل : اي الملابس التي يجدد لونها الاسود بصبغها بالنيل. ويقال لها حينذاك ثياب «النيل» وكانت معظم ملابس النساء من اللون الاسود فإذا أكلح لونها صبغت بالنيل.

(١٩) في مجلس المعمر غانم بن ياقوت. مرجع سابق.

(٢٠) ديم : جلس.

(٢١) الكوار : موقد النار .

(٢٢) يرج : يرتعش .

(٢٣) في هذا المجال هناك اسطورة تتعلق حتى بظهور فن الفجري في الخليج - وهو أحد اشهر الفنون

البحرية- لمزيد من المعلومات انظر : بولس انطوان نصر، خليج الاغاني، دار المثلث للطباعة والنشر، ص ٥٠.

(٢٤) في مجلس المعمر غانم بن ياقوت، مرجع سابق.

(٢٥) الكيت اصغر من القلص. لذلك تفضل سفن الغوص حملة معها نظرا لخفة وزنه فإذا كانوا يسيرون لمسافة طويلة يحمل فوق برج السفينة، أما إذا كانوا في الهير فهو مربوط بحبل وراء السفينة.

(٢٦) انظر الدراسة التي اجراها محمد طالب الدويك - مرجع سابق - ودراسة اجرتها حصة الرفاعي بعنوان : أغاني البحر، دراسة فولكلورية، الناشر، ذات السلاسل، ١٩٨٥، الكويت.

(٢٧) لقد كانت أغاني البحر وبالذات أغاني العمل تكاد تكون واحدة في معظم سفن الغوص سواء القطرية أو البحرينية والكويتية. ولم يتوقف ذلك على مجال الأغاني فقط. فهناك شخصيات شعبية قد اشتهرت على مستوى المنطقة بعضهم نواخذة والبعض الآخر من الشعراء. كذلك في مجال الأساطير الشعبية المرتبطة بمهنة الغوص والحكايات المتبادلة.

الفصل الثاني

العلاقة بين أهل البر وأهل البحر أثناء الموسم

لقد كانت العلاقة بين أهل البحر والبر مستمرة طوال الموسم بواسطة عدة وسائل. **أهمها** على الإطلاق «العبرات» التي تتجول طوال الموسم ما بين مغاصات اللؤلؤ. والوسيلة الثانية هي الجولات التي يقوم بها «الطواويش» أو تجار اللؤلؤ لسفن الغوص وهي راسية في الهيرات. والوسيلة الثالثة تكون من خلال الزيارات التي تقوم بها سفن الغوص للبنادر المختلفة وللبلاد في زيارات مؤقتة تسمى (الدخلة والصيفية).

ولقد تطرقنا بالحديث من قبل عن العبرات خلال حديثنا عن نقل المرضى من البحارة إلى البلاد. مع ذلك فالعبرات كانت تلعب دورا أساسيا ما بين سفن الغوص والبلاد.

والعبره [(١)]: عبارة عن سفينة نقل صغيرة وطاقمها محدود ومهمتها الأساسية تجارية. فلقد كان تجار التموين يستخدمون تلك السفن في إيصال مواد التموين (كالتمور والارز وخلافه) لسفن الغوص في المغاصات، خاصة للسفن السلفية التي لا تعود إلى البلاد إلا في الاجازات الرسمية المذكورة اعلاه طوال الموسم الذي يمتد إلى أكثر من أربعة شهور، وبسبب كثرة عدد الأيدي العاملة على السفينة فإنهم يحتاجون إلى مواد تموينية بصفة مستمرة وخاصة الماء. وقد يقول قائل لماذا لا تحمل السفينة المواد التي تكفيها؟ لقد كان ذلك في حالة تطبيقه عبارة عن حمولة زائدة على السفينة ويشكل خطورة كبيرة على هيكلها. وذلك هو السبب الأساسي في عودة السفن الخماسة الأصغر حجما بعد كل ١٥ أو ٢٠ يوما الى البلاد للتزود بالماء والمؤن.

فبالنسبة للسفن الخماسة فهي، أولا، لا تتوغل كثيرا في عرض البحر أو تصل إلى الهيرات النائية، فحجمها لا يؤهلها كثيرا لمكافحة الأمواج في المياه العميقة، وثانيا، فإن حمولتها من الماء والمؤن - كما سبق وأن أشرنا - محدوده لذلك فهي سريعة العودة إلى البلاد وكانت زبونا دائما لفئة «المزاره أو المزازير» الذين يقومون بجلب الماء إلى السفن على ظهور الجمال. وإذا اصبح الولم أي أتجاه الرياح وسرعتها ممتازا للإقلاع فإن النوخذا في تلك الحالة وبسبب استعجاله للتزود بالمياه يتيح لتلك الفئة فرصة للكسب السريع.

ومن ضمن الأسباب التي تستدعي قيام السفن بزيارات سريعة إلى السواحل أو أحد البنادر هي حاجة السفينة إلى عمليات الصيانة أو الهباب أو بسبب تعرضها للعطب. والسبب الاخير يستدعي من السفينة العودة الفورية إلى البلاد أو أحد الموانئ التي يتوفر بها من يقوم بإصلاح

السفن خوفا من الغرق. أما عملية الهباب فهي أكثر الأسباب التي تعود أو تبندر فيها السفينة من اجل تنظيفها فبعد مرور مدة شهر أو أربعين يوما لابد أن تجدف السفينة إلى إحدى الجزر من أجل هبها ودهنها. وعندما تلقي السفينة مرساتها في أحد تلك الحالات أو الجزر أو البنادر (مثل دلمه أو البشيريه.. إلخ) يقوم بحارتها بتنظيفها من «النو» وهي حشائش وطحالب تنمو على جدارها الخارجي وذلك «باستخدام الرمل المبلل بالماء فوق الحبال والخوص والقيام بحك السفينة بواسطته وهم يغنون»[٢].

هبــوها بالحــســحــاســه

مــا جــاب رأس الطاســه

ثم يقومون بدهنها «بالصل» وبعد ذلك يعودون إلى الهيرات مرة أخرى.

كذلك قد تلجأ السفن إلى البر هربا من العواصف الشديدة فتجدف السفن جميعها الى الموانئ والسواحل القريبة خوفا من الغرق. وقد تطول فترة تقلب الرياح إلى مدة اسبوع تبندر فيها السفن متعطلة عن الغوص ويسمى ذلك «عباط» خاصة في أيام هبوب رياح البوارح والثريا. وقد تحاول إحدى السفن الخروج من البندر ولكنها تعود بعد قليل خوفا من الغرق. وفي اللحظة التي تخف فيها حدة الرياح تخطف السفن من فورها حتى ولو كان ذلك في منتصف الليل. أما إذا لزت السفن البر فإن البحارة يغتنمون تلك الفرصة ويقومون بزيارة عائلاتهم، وقد يصادف رسوهم في مدينة أخرى عندها ينزل البحارة من السفن ويتجولون في سوق المدينة.

لذلك فقد يصادف ان تبندر سفن الكويت أو البحرين في مدن قطر، والسفن القطرية ترسو في موانئ ساحل عمان.. وهكذا. ولا يقتصر ذلك على هبوب الرياح فقد تجدف السفن المختلفة لنقل مريض أو لقضاء حاجة حيوية.

ومن الأمور الطريفة التي تحدث في هذا المجال قيام البحارة بأداء طقوس من اجل أن تهب الرياح فيضطر النوخذا للعودة إلى البلاد أو يبندر في أحد الجزر لكي يحصلوا على فترة راحة من الغوص ومن الأمراض الجلدية التي تصيبهم نتيجة تعرضهم للبلل طوال اليوم. وكانت تلك الطقوس غريبة نوعا ما وتعبر عن إيمان بالقوى الغيبية والخارقة لبعض المخلوقات. وسيتم ذكرها في الفصل القادم عند الحديث عن طقوس القفال.

وبالإضافة إلى زيارة العبرات وفترات اليداف التي تتم في الحالات الطارئة كان الطواويش يقومون بجولات ما بين السفن أثناء الموسم من أجل شراء المحصول أولا بأول. فبعد انطلاق السفن إلى الهيرات ومرور فترة زمنية قصيرة يقوم صغار الطواشين بتجهيز سفنهم (وهي عادة أصغر من سفن الغوص ويوجد بها نوخذا وعدد من البحارة يساعدون في رفع الشراع وسحب حبال السفينة.. إلخ). وعندما يصل الطواش إلى أحد الهيرات وتكون فيه عدة سفن راسية يمارس بحارتها الغوص في قاع ذلك الهير، يأمر بحارته بانزال «القلص»[٣] ويركب فيه ومعه بحاره يتراوح عددهم ما بين ٤ إلى ٨ حسب حجم «القلص» ويتميزون بالقوة البدنية والمهارة في التجديف، ويجلس الطواش في مؤخرة الزورق ويبدأ بحارته بالتجديف وهم يغنون[٤] تشجيعا لأنفسهم فإذا وصل إلى السفينة[٥] فإنه يسلم على البحارة ويقوم بسؤالهم عن أحوال الغوص فإذا علم بأن لديهم لؤلؤا ويرغبون بأن يعاينه يصعد إلى ظهر السفينة. فيجلس مع النوخذا وتجري احاديث واتفاقات سرية ما بين الاثنين حول سعر اللؤلؤ حتى لا يعلم بها البحارة. فإذا وافق النوخذا على البيع تتم الصفقة وإلا نزل من السفينة وذهب إلى سفينة أخرى.. وهكذا. وعلى الرغم من تنافس الطواويش على عمليات الشراء إلا أن هناك عرفا يحكم تلك المنافسة وتتلخص في أن الطواش الذي يسبق الآخر إلى السفينة تكون له الأولوية لأتمام الصفقة إلا في حالة ما إذا لم يعجبه السعر فهنا تتاح الفرصة للآخر.. وهكذا.

ويقوم تجار اللؤلؤ من فئة الطواشين بزيارات متكررة لسفن الغوص طوال الموسم، وبعضهم يصل نشاطه إلى شراء كميات كبيرة من اللؤلؤ يقوم ببيعها على تاجر اللؤلؤ الكبير الذي لا يغادر البلاد عادة، إذ إن صغار الطواشين هم الذين يقومون ببيع اللؤلؤ عليه بعد شراءهم للمحصول من النواخذه أو من طواشين آخرين. فتاجر اللؤلؤ يحتكر تلك التجارة محليا ويقوم بتسويقها في الخارج حيث يبيعها على التجار الهنود أو تجار كبار آخرون غيره في منطقة الخليج.

ولا تقتصر علاقة أهل البحر بأهل البحر عند هذا الحد إذ ان هناك فترتان أساسيتان لليداف إلى البر تعتبر حقا مكتسباً من حقوق البحارة، وعلى نواخذة السفن الاستجابة لهم والا اصبحت العواقب وخيمة. وتلك الفترتان هما «الدخله» و«الصيفية» تكون بمثابة إجازة يقوم بها البحارة بزيارة أسرهم وعلى النواخذة تزويدهم بمبلغ «الخرجية» لكي يقوموا بتموين أسرهم

للفترة الباقية من الموسم.

والدخلة تكون بعد مرور شهرين (٦٠يوما) على اول السنّة[٦] بالنسبة للسفن الضخمة - تتخللها فترات توقف للصيانة أو بسبب الرياح - تعود فيها إلى البلاد. وتبقى السفن لمدة ٦ أو ٧ أيام تعود بعدها إلى المغاصات بعد أن تتزود بالماء والمؤن مرة اخرى. ولا تتم احتفالات في «الدخلة» سواء عند العودة أو عند الإقلاع. إلا في حالة حصول سفينة ما على دانة أو حصباه ثمينة فإن طاقمها يقوم بالغناء ورفع الأعلام إعلانا بالفرحة أثناء دخولهم إلى البلاد. وقد تعود السفينة إلى البلاد في مثل هذه الحالة قبل موعد «الدخلة».

بعد الإقلاع إلى الهيرات تبقى السفن حوالي شهر من الزمان يمارس فيه البحارة الغوص على اللؤلؤ. ثم يأتي موعد الإجازة الثانية وهي تكون بمثابة إجازة رسمية لجميع سفن الغوص في موسم (الغوص العود) - في منتصف الموسم تقريبا - وتسمى «الصيفية» أو «يدافة الصيفية». وهي تأتي بعد مرور ثلاثة شهور منذ بداية «الدشة» أو موسم الغوص العود. وبعد مرور شهر على «الدخلة».

في «يدافة الصيفية» يقدم النواخذة مبالغ مالية «سلف» للبحارة تسمى الخرجية أكبر من المبالغ التي يحصلون عليها في إجازة «الدخلة» فكان الغيص يحصل على حوالي ١٥ روبية والسيب ١٠ روبيات. وتتدخل الحكومة في تحديدها وتستمر لفترة ٥ أو ٦ أيام يعودون بعدها إلى البحر يمارسون فيها الغوص لفترة شهر وعشرة أيام ويكون بعدها القفال اي انتهاء موسم الغوص العود.

يفرح البحارة كثيرا بالصيفية بسبب تزويدهم بتلك المبالغ التي تكون أسرهم في أمس الحاجة إليها. لذلك عندما يتأخر أحد النوخذة بالعودة يغضب البحارة كثيرا خاصة إذا رفض حتى إقراضهم مبلغ الخرجية لكي يرسلوه مع أحد «الطواويش» الذين يزورونهم باستمرار إلى أسرهم. وعندما يحصل ذلك يلجئون إلى ما يعرف «بالشكشكة» في عرف الغوص لأجبار النوخذا على اعطائهم حقوقهم المتعارف عليها.

في بعض الأحيان وعندما تشتد الأزمة ما بين النوخذا و«يزواه» - أي بحارته - يلجأ إلى الاستعانة بإحد أعيان البلاد المشهورين بدورهم في القيام بالوساطة ما بين المتخاصمين في مثل هذه الأحوال لاقناع البحارة بالعودة إلى العمل أو الوصول إلى حل الخلاف بتنفيذ وغبات

البحارة بالعودة أو صرف «الخرجية».

لقد كان للصيفية أهمية اقتصادية وانسانية كبيرة بالنسبة للسكان، فهي تأتي في الوقت الذي يكون فيه قد مرت ثلاثة شهور من الموسم وقد عانى الطرفين أهل البحر وأهل البر من مشاق الحياة الكثير، لذلك يفرح بها السكان كثيرا وتحدث ظواهر مرافقة لها - سيتم ذكرها في الفصول القادمة - فكانت النساء بالذات ينتظرن عودة الغواصين ويجلسن أحيانا على البحر يراقبن دخول السفن إلى الميناء في «يدافة الصيفية».

الهوامش

(١) تسمى في ساحل الامارات «النشالي».

(٢) محمد طالب الدويك، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٣) القلص : قارب صغير.

(٤) لقد كانت أغاني يرار القلص - اي التجديف - تختلف عن أغاني اليرار (التجديف) في السفن الكبيرة أو سفن الغوص. مما يشير إلى تعدد وتنوع البناء الثقافي للاعمال والمهن البحرية.

(٥) وعادة يقوم صغار الطواشين أو حديثي العهد بهذه التجارة بمرافقة من هم اكبر منهم سنا من الطواشين للتعرف على اسرار المهنة.

(٦) كانت في السابق أكثر من ذلك حيث كانت تطول لتصل إلى ٧٥ يوما. ثم بعد ان قامت الحكومة - مجازا والتي تتمثل في سلطة الشيخ - بتنظيم شئون الغوص اصبحت المدة لا تزيد عن ٦٠ يوما.

الفصل الثاني

دور المرأة الاقتصادي والثقافي أثناء موسم الغوص

تحمل سفن الغوص معظم الرجال وتنطلق بهم إلى مغاصات اللؤلؤ في عرض البحر في رحلة اقتصادية شاقة تمتد لفترة أربعة شهور وعشرة أيام، تتخللها فترة عودة قصيرة للتزود بالمؤن. ولا يبقى بالبلاد سوى العاجزين عن الاشتراك في مهنة الغوص من شيوخ ومرضى وأطفال هذا بالإضافة إلى كبار الطواشين (تجار اللؤلؤ) وتجار التموين والحاكم والحرس التابع له. أيضا يبقى بعض الممارسين لمهن خارج نطاق المهن البحرية وتعد مهنا مستديمة وغير موسمية مثل المؤذن وشيخ الدين والمزارع الذي يعمل في الزراعة والسقاء الذي ينقل المياه إلى البيوت والسفن والبقال وأصحاب حرف أخرى كالحداد والقلاف.. الخ، هذا ويطلق على الرجال الذين لا يشتركون في الغوص بشكل مباشر اسم «الطابور» ويطلق خاصة على فئة الطواويش التي تطوش (تشتري اللؤلؤ) من السفن بعد عودتها من الهيرات. أما القطاع السائد أو الذي يشكل الاغلبية السكانية في المجتمع في تلك الفترة من السنة فقد كان يتمثل في القطاع النسائي. حيث تبقى النساء بالبلاد ولا يشتركن بشكل مباشر أو غير مباشر بالحرفة الأساسية بالمجتمع. ويقتصر دورهن على القيام بالمهمات المنزلية واعباء الأسرة طوال الفترة التي يغيب فيها الرجال. ومن خلال شكل مثالي من أشكال التعاون الاجتماعي تسير الحياة في المجتمع أثناء غياب القطاع الأكبر من الرجال كما سنرى.

وتبقى شواطئ الحواضر القطرية من الجنوب إلى الشمال: الوكرة، الدوحة، الضعاين، سميسمه. الخور. الذخيرة، الغارية، المفير، الرويس، ابو الظلوف..) على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة خالية من سفن الغوص (التي تعد بالمئات خاصة في الدوحة والوكرة والخور) إلا من جواليبت صيادي السمك والقوارب الصغيرة (من نوع الشوعي والهوري) وجو البيت بعض الطواويش المتواجدين في البلاد. وفي هذه الفترة يبرز دور المرأة في المجتمع بشكل كبير في الحياة اليومية.

وكان المجتمع النسائي في تلك الفترة ينقسم إلى فئتين : فئة عاملة وفئة مستهلكة. وأن كان العمل في أغلب الأحوال تعاونيا. إلا إن هناك حرفا ومهنا نسائية تمارسها بعض السيدات وأيضا هناك حرفاً ومهناً تمارسها نساء من فئات اجتماعية معينة تتبع وتتأثر بشكل التقسيم الاجتماعي.

ويبدأ يوم المرأة قبل صلاة الفجر يومياً بأداء المهام المنزلية فيقمن يحلب البقر واطعام

الحيوانات. ويدب النشاط بإرتفاع أصوات المؤذنين وصياح الديكه وأصوات رنين الهواوين كل يصنع قهوته. وبعضهن ينطلق من الفجر إلى العيون يجلبن الماء في قرب على ظهور الحمير أو على رؤسهن. والبعض الآخر يستأجر من يقوم بجلب الماء مثل بعض السيدات حيث تقوم ربة البيت بدفع حميرها إذا كانت تملك حميرا (كان يوجد حمار أو حماران في أغلب المنازل) للمرأة التي تقوم بتجميع مجموعة منهم من عدة منازل وتذهب بهم إلى العيون لتحضر الماء وتوزعه على المنازل أو يشترونه من عند الزراريع الذين يمرون في الفرجان وينادون على الماء (ياليلم، ياليلم) فتناديه ربة المنزل فيملأ الجحال[٢]. وتدفع له مبلغا من المال مقابل ذلك. وهناك نوعان من الماء (الخريج والحلو) الخريج تزداد فيه نسبة الملوحة وغير صالح للشرب ويستخدم للغسيل ولطبخ الطعام وللاستحمام. أما الحلو فهو للشرب فقط وغالي الثمن نتيجة بعد العيون الحلوة عن البلاد، فكلما كانت العين قريبة من الساحل ازدادت ملوحتها. وتسمى العيون التي في وسط الدوحة «الخرايج» ويطلق عليها اسم القبيلة أو الحي الذي توجد فيه. وأشهرها خريجة «السودان» وخريجة «الساعي» أو أبرج الساعي. وكانت «مريخ» أشهر العيون الحلوة التابعة لمدينة الدوحة آنذاك. أما أكثر العيون استهلاكا وازدحاما فلقد كانت عين «نعيجة» وذلك نتيجة كونها أقل ملوحة من الخرايج نسبيا ولأنها أقرب من مريخ. وبالنسبة للعيون والخرايج القريبة فإن النساء والخدم كن يذهبن إليها يوميا سيراً على الاقدام ويجلبن الماء على رؤوسهن. أما العيون البعيدة فكن يستخدمن الحمير للوصول إليها وجلب المياه منها بواسطة القرب أو «اليودان». ومفردها: «يود» وهي أكبر حجما من القربة. وفي كل مدينة كانت توجد عيون. وتشتهر الخور بعين «حليتان» التي كانت تشهد ازدحاما كبيرا. وعين «تمبج» التي كانت توفر المياه لعدة قرى ومراكز حضرية ساحلية منها سميسمه، والضعاين، والوسيل، والخور أيضا، ومن الامور التي كانت تمثل مشهدا عاديا آنذاك أن الناس كانوا يقفون طوابير منتظمة من أجل الحصول على الماء. كذلك نجد أن عدداً كبيراً من الأسر كانت تحفر العيون داخل المنزل وتسمي هنا «الجلبان»[٣] وتتميز بالملوحة، نتيجة قربها من السواحل.

وفي فترة الضحى تجلس النساء في «الفيان» أي ظلال الدور على الحصر والمداد في شكل مجموعات يشربن القهوة ويتناولن «الفاله» وتكون عبارة عن إحدى الاكلات الحلوة كالخبيص

أو العصيد أو البلاليط. ولا يذهب الوقت هدراً وإنما كن يقمن بالخياطة أثناء تلك الجلسات الصباحية كل سيدة تحمل أدواتها من أبر وخيوط وقبيب وأقمشة وتزور «المقعد» وكان يطلق على تلك الجلسة اسم «المقعد» وفي كل فترة زمنية معروف من يكون عندها «المقعد». والذي يكون دائما لدى السيدات اللاتي يتميزن بالكرم والترحيب والانشراح فتشتهر بين سيدات الحي فيتجمعن في فترة عندها في مقعدها وفي فترة أخرى عند غيرها... وهكذا، حيث كن يتبادلن الزيارات بصورة مستمرة، إلا إن أهم شيء كان يتم انجازه في تلك «المقاعد» هو الخياطة بجميع أنواعها من ثياب للسيدات وللرجال وعباءات وبخانق للفتيات وملابس للأطفال. ويتم خلالها التعاون في نقش الملابس بخيوط الزري والبريسم وهي نقوش صعبة وتحتاج إلى جهد ووقت وكان التعاون أحد أهم سمات تلك الجلسات فيتم انجاز معظم أعمال السيدات المشاركات، كما تتميز ببعض الظواهر الثقافية التي سنشير إليها فيها بعد.

وتنتهي فترة الصباح بالغداء عند الساعة العاشرة ويذهب الجميع للنوم والراحة وعند الزوال يستيقظ السكان لأداء صلاة الظهر، وبعد انقضاءها تفتح الأبواب وتصنع القهوة ويسمع رنين «الهواوين» من جميع الجهات مرة أخرى وتبدأ فترة زيارات جديدة في «مقاعد» أخرى. وتكون فترة الظهر والعصر أيضا عبارة عن جلسات خياطة في «الفيان» أي تحت ظلال الدور حيث تسحب المداد والسجاد التي جلسوا عليها في فيّ الصباح إلى فيّ العصر. كما تتميز فترة العصر بإنها الفترة التي يتم فيها جمع الحطب وحش الحشيش (الصخبر والهلته وهي أعشاب برية صيفية لا تنمو إلا نتيجة موسم شتاء ممطر) من المناطق البرية المجاورة، الاولى لاستخدامها في إيقاد النار وطبخ الطعام، والثانية لإطعام البقر والحمير والماعز والأغنام، وفي بعض الأحيان خاصة في منطقة الشمال تستمر عملية الاحتطاب حتى الليل نظرا لبعد المسافات فيمرون على آبار الماء في منطقة (أم الشخوط) للتزود بالماء وهم في طريقهم إلى مدينة الخور ومعهم حميرهم محملة بالحشيش والحطب. ولا يقتصر الوقود على الحطب بل كن يجمعن بقايا روث الحيوانات أيضا وخاصة روث البقر والجمال. وتنجز هذه الأعمال في العصر بعد أن تخف حرارة الشمس ويصبح بالإمكان السير مسافات طويلة بدون خوف من الحر أو ضربات الشمس. ويلاحظ أن معظم الأعمال التي تحتاج إلى جهد بدني وإلى سير مسافات تحت أشعة الشمس كانت تنجز على فترتين، الأولى تمتد من قبل الفجر حتى الساعة الثامنة

صباحا والثانية في فترة ما بعد الظهر. حيث حددت الظروف المناخية حركة السكان وأعمالهم اليومية بفترات زمنية معينة.

بعد صلاة المغرب تستمر جلسات الخياطة على ضوء «السراية» وفي هذه الجلسات تخيط المرأة ملابس أسرتها وملابس أقاربها الذين لا يوجد لديهم أحد يعرف كيف تصنع النقوش أو أشكال التطريز وتساعد صديقتها وجارتها في إنجاز ما لديها من مواد تخيطها. وبعضهن يخيط ويبيع على النساء الأخريات. ويقمن في الجلسات الليلية بالذات بسرد الحكايات والحزاوي والتي تكون مكررة في كثير من الأحيان.

ولقد مارست النساء في تلك الفترة بعض المهن الحيوية بعضها مرتبط بدورالمرأة الاجتماعي الاقتصادي في الأسرة والبعض الآخر يمثل مساهمة لا بأس بها في النشاط الاقتصادي العام في المجتمع. وكانت المرأة تمارس دوراً اقتصادياً قد يعتبر هامشيا مقارنة بالنشاط الاقتصادي الرئيسي الذي لم يكن للمرأة دور يذكر فيه وهو الغوص على اللؤلؤ والتجارة المرتبطة به إلا أنها كانت مهنا حيوية في تلك الفترة.

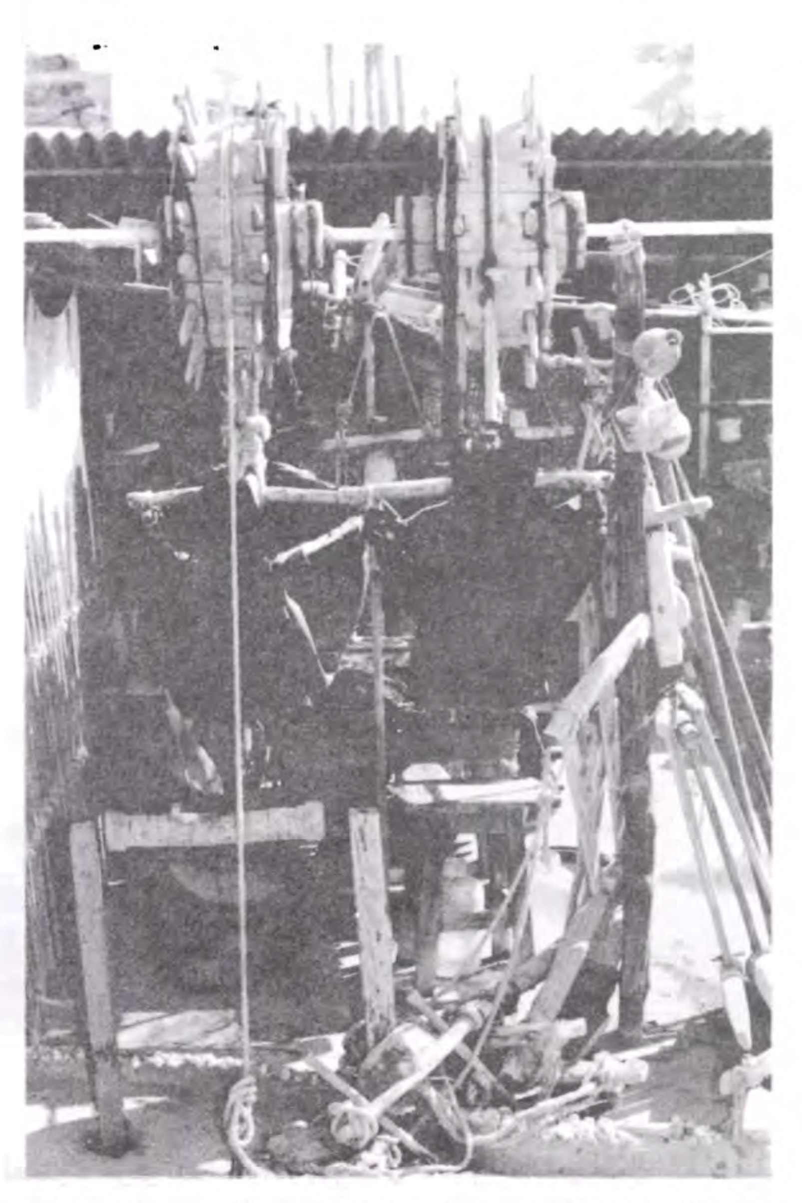
المهن النسائية السائدة :

تميزت تلك الفترة بممارسة بعض النساء لمهن متنوعة وذات طبيعة شاقة في بعضها. كما كانت تتميز بالحيوية والمشاركة المباشرة في أنشطة المجتمع الاقتصادية. وفيما يلي شرح لأهم المهن التي كانت تمارسها المرأة في مجتمع الغوص:

١ - مهنة : مزر المياه :

عانى سكان شبه جزيرة قطر من قلة مصادر المياه الصالحة للشرب وخاصة في الفترة التي سبقت دخول البلاد عصر التحديث واستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة في توفير مياه الشرب. ولذلك كانت آبار أو عيون المياه العذبة نادرة خاصة في الأماكن القريبة من المدن الساحلية التي كانت تعاني من زيادة نسبة الملوحة في مياه العيون الموجودة بها ويطلق عليها اسم «الخرايج» ونتيجة لذلك برزت مهنة حيوية تمس حاجة أساسية من حاجات المجتمع وهي توفير المياه للسكان فبرزت فئة كانت تقوم بجلب المياه من العيون في قرب جلدية كبيرة الحجم على ظهور الجمال والحمير ويقومون بتوزيعها على السكان مقابل أجر مادي. وكان يطلق على ممارسي تلك المهنة «الزراريع».

وشاركت المرأة في هذه المهنة الشاقة التي تحتاج إلى جهد بدني في مزر أو نزف أو موح المياه من العيون أولاً وملء القرب «اليودان» وثم تحميلها على الحمير ثم سوق الحمير إلى البلاد وتوزيعها على السكان. وفي موسم الاستعداد للغوص تزدهر فعاليات تلك المهنة فكان يتم جلب المياه على ظهور الجمال لتزويد السفن بالمياه وهذه العملية بالذات يطلق عليها اسم «مزر المياه».



القرب الجلدية التي كانت تسحب بواسطتها المياه من العيون وتسمى «السواني»
تصوير : الباحثة

وكانت النسوة اللاتي لا يوجد لديهن خدم ولا يستطعن شراء المياه يقمن بالذهاب إلى العيون وجلب ما يحتجنه على رؤوسهن أو على الحمير التي يملكنها. أما العائلات التي تملك العبيد والخدم فأن مستخدميها يقومون بهذه المهمة يوميا. وبعضهم توكل إليه مهمة سقي المزارع التي يملكها أربابهم يدويا.



الجمال وهي تسحب المياه بواسطة السواني

المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

٢ ـ مهنة بيع الاسماك :

اقتصرت مهنة بيع الأسماك على النساء في المجتمع آنذاك وكن من عائلة معينة تمارس هذه المهنة قديما. وكن يجلسن في «الحاله» ويقربهن السلال والقفران مليئة بجميع أنواع الأسماك. ويشتري سكان الدوحة من عندهن، أي أنهن لا يتجولن على المنازل من أجل بيع السمك. وكانت بائعات السمك يشترينه أساسا من صائدي الاسماك وفي أحيان كثيرة يكون هؤلاء الصيادين أزواجهن أو من اقاربهن. حيث كن ينتظرن قارب الصيد حتى يقترب من الشاطئ ويأخذن من عندهم الأسماك ويضعنها في الاكياس ويحملنها إلى «الحالة» المكان الرئيسي الذي تتم فيه عملية البيع وهو مكان قريب من الاسواق (سوق المهاره وسوق واقف) وفيه محلات للجزارة وأخرى لمواد التموين. وفي طريقهن من الشاطئ إلى السوق كانت النساء في الفرجان ينتظرهن في الطريق من أجل شراء احتياجاتهن من السمك. وأحيانا يبعن عليهن إذا كان الصيد وفيرا وأما إذا كان قليلا فإنهن يرفضن ويقلن للسيدات تعالين إلى «الحالة» فالبيع هناك.

أما في منطقة الشمال فإن النساء كن «يبارون» بأنفسهن أي يصطدن الأسماك بأنفسهن بواسطة عدة أساليب مختلفة منها الشروخ والقراقير والمساكر.

٣ - مهنة : صنع وبيع الاكلات الشعبية :

امتهنت بعض النسوة الخبازة، وكن يضعن الخبز الطازج في سلال ويقمن ببيعه في السوق، وظهرت فئة تسمى «الخبابيز» نسبة إلى المهنة التي كن يمارسنها كما اشتهرت تلك الفئة في مجال الغناء والفنون الشعبية وإقامة إحتفالات دق وطحن الحبوب. كذلك كن يقمن بطبخ الباجلاء والنخي ويضعنه في قدور ويحملنها إلى السوق ويجلسن يبعن هناك. وأحيانا يقمن بالبحث عن مكان تكثر فيه حركة الناس أو بعض الفرجان المزدحمة وتجلس الواحدة منهن في أحد الاركان ويقوم الاهالي بإرسال اطفالهم لشراء ما عندها من أكلات. وتنادي على بضاعتها وهي تقول «باجلا ساخن ياولد».

٤ - بائعات الحطب :

نتيجة لتوفر بعض الانواع من الاشجار البرية في بادية قطر وتميزها بذلك عن باقي منطقة الخليج قامت فئة من السكان وهم من البدو بتوفير بعض احتياجات المجتمع من الاخشاب والحطب المستخدم في إيقاد النار. فكانت المرأة البدوية تأتي من البادية بالجمال المحملة بالاخشاب البرية التي قامت باحتطابها هي أو أفراد عائلتها إلى سوق واقف وتبيع على الناس بضاعتها. كما تبيع «اليقط» و«الدهن أو السمن» والاعشاب البرية والحشائش. وعندما تفرغ من بيع بضاعتها تركب ناقتها وهي تغني وتقول :

«بايع حطب شاري سمج ومروح»

أي أنها باعت الحطب الذي جلبته معها واشترت بدلا منه سمكا وهي عائدة إلى باديتها وهي في غاية الانشراح.

٥ - بائعات متجولات :

كانت المرأة لا تذهب إلى السوق من أجل التسوق نتيجة العادات والتقاليد التي كانت تمنع ذلك. وبسبب ذلك توفرت نساء للقيام بهذه المهمة. وكانت هناك فئتين أو نوعين من البائعات أو التاجرات:

١ - نساء يزرن البيوت . ويكن من المعارف وتتعرف تلك السيدة على احتياجات النساء وتقوم بشراءها من منازل التجار ثم تقوم ببيعها على نساء المجتمع أو تكون عبارة عن وسيط بين التاجر والسيدة التي ترغب في الشراء.

٢ - بائعات متجولات : ويطلق عليهن محليا تسمية «الحوايات» حيث كانت الواحدة منهن تحمل بقشه كبيرة على رأسها وتتجول على الفرجان والبيوت وتنادي على بضاعتها وعندما ترغب إحداهن بالشراء تدعوها إلى الدخول فتفتح بقشتها المليئة بشتى أنواع البضائع خاصة التي تحتاج إليها المرأة (مقص، مرآة، مواد زينة، خيوط، ابر.. إلخ) وهن في الأغلب اي الممارسات لهذه المهنة من الجالية الايرانية التي تسكن البلاد. ولازالت هذه المهنة موجودة بشكل أو بآخر ولم تنقرض مثل سابقاتها.

٦ - الخياطات :

كانت الخياطة عملية لا تقتصر على فئة معينة بل أن معظم السيدات في المجتمع يمارسن لخياطة سواء لتوفير احتياجات أسرهن أو باقي أفراد العائلة أو حتى الجيران والمعارف وبدون مقابل. ومع ذلك فقد كان هناك نسوة كن يقمن ببيع انتاجهن أو يخطن لنساء أخريات أو أسر أخرى مقابل ثمن أو أجرة معينة. وكان هذا مقبولا في عرف المجتمع آنذاك وليس عيبا وحتى فتيات العائلات المعروفة كن يبعن انتاجهن بدون حرج.



نموذج دراعة طفلة صغيرة مزينة بنقوش من خيوط الزري حول الجيب وقد اضيف إليها لون آخر عند الكتفين
تصوير : الباحثة

وكانت الخياطة تشتمل على جميع أنواع الملابس هذا بالاضافة إلى بيوت الشعر والسجاد. وكان «الثوب المركب» أهم أنواع الملابس التي كانت المرأة تقوم بخياطتها وهو الثوب الذي تلبسه المرأة فوق «الدراعه». وسعر خياطة المركب كان روبيتين وهو سعر غالٍ في ذلك الزمان نتيجة النقوش الكثيرة الموجودة فيه والتي تقوم الخياطة بنقشها بخيوط الزري أو البريسم أو

بالإثنين معا. كما كن يخطن الثياب «المجاريج» والذي يتكون من عدة ألوان، وثوب الدالع، ويصنعن خياط «العواريه» وهو أبسط الأنواع و«البخيه» وهي نقوش بسيطة ونقوش «ضروس الخيل» و «التعصي» و«التشدد» و«الدالات» و«اليوزية» ونقشات «السراويل» و«ثوب العرية» بنقشة بسيطة من خيوط البريسم الاحمر والاصفر، وتبيع المرأة الأربعة ثياب بروبية. كما يخطن العباءات المحورية ويجعبن البشوت في مقابل عشرين روبية.. الخ. وملابس الرجال والأطفال وأيضا يقمن بنقش بعض أنواع ثياب الرجال والجوارب وملابس الاطفال بأنواعها وخاصة «الكلاهية» وهي غطاء لرأس الطفل يحتاج إلى نقوش كثيرة بالزري وتصنع له كركوشة في القمة ولها دلايات تغطي الأذنين وتربط بخيوط تحت فك الطفل. كما يخطن بخانق الفتيات بالزري والبريسم ويقمن بتركيب هلالي الذهب على جبهة البخنق ويرصعن كم «الدراعة» برصوع من الذهب. ويفرصن البطاطيل... الخ. وفي فترة الأعياد وموعد «القفال» يزداد ضغط العمل على الخياطات ويواصلن الليل بالنهار حتى ينجزن الطلبات العديدة رغم ما كان يرافق ذلك من جهد نتيجة الخياطة باليدين بدون أجهزة مساعدة والنقوش الكثيرة والمتنوعة. وكن يخطن في شكل مجموعات كل أربع سيدات يجتمعن ويجعبن البشت الواحد.

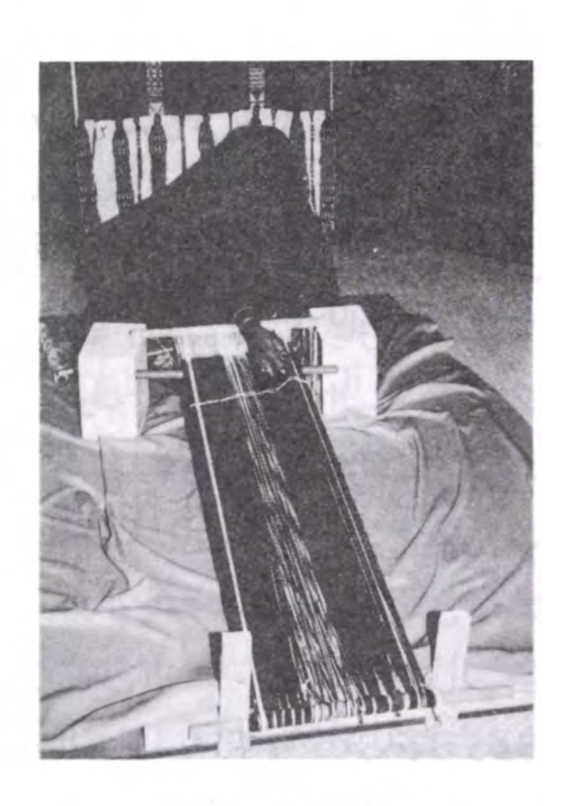
٧ - النساجات :

تزدهر مهنة النسيج في فترة الصيف عندما يذهب الرجال ويكون وقت الفراغ كبيرا وأيضا استعدادا لموسم الشتاء القادم حيث تخرج معظم العائلات والقبائل إلى البادية القريبة بعد أن تتوقف حركة «الغوص» وما يرافقها من أنشطة اقتصادية ومالية «كالطواشه» وخدمية «كمزر المياه» وتموينية وحرفيه.. الخ. فكما أن موسم الغوص له استعداداته وأنشطته الاقتصادية التي تدور في فلكه فإن لموسم الرعي والخروج إلى الصحراء استعدادات وانشطة ومهن يقبل عليها المجتمع وكأن المجتمع واقع تحت حتمية جغرافية موسمية. وحلقة زمنية لا يخرج من إطارها.

ومن بين تلك الأنشطة قيام النساجات الماهرات بنسج بيوت الشعر، فيبدأن بمد خيوط الصوف التي تم غزلها في الجلسات النسائية النهارية والليلية وأثناء تبادل الأحاديث وشرب القهوة. وفي البداية تقوم المرأة بشراء صوف الغنم من عند رعاة الأغنام والجمال «الشوان»

الذين لا يشتركون في الغوص ويبقون في البادية حتى في فصل الصيف لرعي الإبل والأغنام التي يسلمها أصحابها لديهم مقابل أجر مادي من اجل العناية بها حتى بداية موسم الشتاء القادم وتسمى «الوداعة» أو يودعون إبلهم عند البدو. وبعد أن يتم شراء الصوف يتم غسله وتنظيفه ثم يبرم بواسطة المغازل. وكانت النسوة يمارسن عملية «البريم» بمهارة وسرعة كبيرة وبشكل تعاوني ثم يدفع الصوف المغزول إلى «النساجة» فتقوم بمد الخيوط وتسمى هنا «السدوة» وتبدأ بالنسيج بواسطة أدوات بدائية وتحتاج إلى مجهود بدني كبير. فتنسج «السنح» و«الفليان» وهذه المكونات أو الأجزاء التي يتكون منها بيت الشعر وبعد أن يتم نسج مجموعة من السنح والفليان يتم خياطتها مع بعض ليكتمل بيت الشعر. وذلك مقابل أجر مادي. وأحيانا كثيرة تقوم النساجة بنسج بيوت الشعر والعدول والبسط الصغيرة والعشاريات (يزين بها بيت الشعر) لعائلتها وأقربائها. وتقوم بعملية النسج بنات القبائل اللاتي يسكن في فترة الصيف في الدوحة والبدويات في البادية.

وهناك أنواع أخرى من الخياطة وهي تتعلق بالاعتدة والاشدة التي توضع على الجمال. وأهمها: الشداد الذي يوضع على ظهر الجمل وهو نوعان : اشداد لركوب الإنسان ويسمى «الشداد القولاني» وهو صغير الحجم حتى لا يكون ثقيلا على الجمل. وهناك نوع آخر يسمى «المسامة» وهو كبير الحجم وله حواف خشبية لتحميل الأغراض والأشياء الثقيلة على الجمل. كما تخيط المرأة «الخناقة والخطام» وهي التي يتم قيادة الجمل بواسطتها وتزين بالكراكيش الملونة، و«العذار» الذي كان يوضع على وجهها أو خديها وبه كراكيش أيضا، و«الملبة» وهي نوع من الخيوط المتشابكة ومعلق بها كراكيش ملونة توضع على نحر الناقة و«الذناب» يغطي مؤخرتها وبه أيضا الكراكيش. و«الصقاع» و«البطان» على بطنها وصدرها وهما قطعتان منفصلتان ويتم لف صدرها وبطنها بواسطتهما. كما تخيط الرحل أيضا لتحميل الأغراض. وهذه الأنواع تحتاج إلى مهارة ومعرفة وكانت تتميز بها بعض السيدات الماهرات واللاتي تعودن على حياة البادية. أما الحضريات فإنهن كن لا يعرفن كيفية صناعتها أو خياطتها.



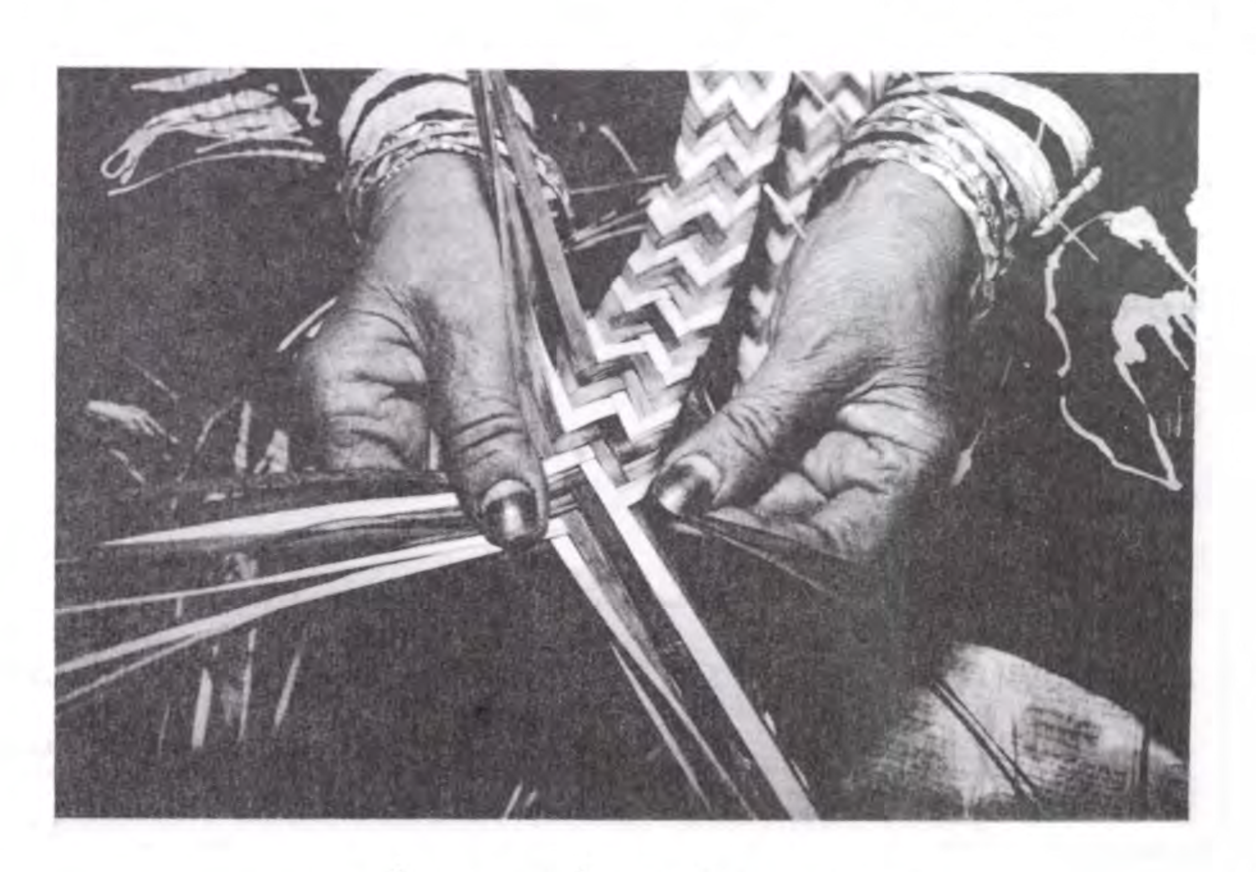
سيدة تقوم بنسج السدو
المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية



السدوه وقد مدت وبقربها «عشارية» انتهى العمل بها وتستخدم لتزيين بيت الشعر
المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

٨ - سف الخوص :

مارست النساء أنواعا عديدة من الأعمال اليدوية من أهمها «سف خوص النخيل» حيث كن يجلس في مجموعات يصنعن «الجفران والحصر والمداد والمهفات والسجاجيد والسراريد والسفر والسميم» والأخير كان يحتاج إلى مجهود كبير بسبب كبر حجمه حيث كان يستخدم في تغطية الكبارة والعرش التي تنصب في وسط الحوش وينام عليها الناس في ليالي الصيف الحارة. وهذه كلها تصنع من خوص النخيل الذي تسفه النسوة على أيديهن بمهارة فائقة. حيث كان معظم أثاث المنزل وأدواته مصنوعة من خوص النخيل. وكانت جلسات «السف» تلك تتميز بالأحاديث الفكاهية والبهجة.



سيدة تقوم بسف الخوص من أجل صنع جفير أو سرود
المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

٩ - الحراسة :

كانت «الحراسة » أو العمل «كحرس» من ضمن الانشطة الصيفية التي كانت المرأة مارستها في الفترة التي يغيب فيها الرجال عن البلاد أثناء موسم الغوص. فكن يقمن بعملية الحراسة تلك ليليا طوال الموسم. وهن من المولدات المتميزات بقوة الشخصية. وكان يتم تكليفهن من قبل «الشيخ» وكان لهن مكان يسترحن فيه بعد التجول وبه موقد نار يوضع عليه إبريق قهوة وآخر للشاي يتناولن منه في فترة راحتهن أثناء نوبة الحراسة وكن إذا مررن بإحد البيوت المشهورة بالكرم والاحسان يغنين على أصحاب البيت وبناته فيقلن :

عينت غزلان الدحل وعينت فرحة

بنت النيب(٦) اللي يثنى على التالي

أيود(٧) بن أيود بالكرم منقع البود(٨)

مثل الحيا(٩) لي طاح بدار المحالي(١٠)

فيمتدحن بتلك الأبيات كرم صاحب البيت ويثنين على شجاعته ويقوم السكان بتزويدهن «بالقهوة والهيل» ويرسلون القهوة إلى مكان راحتهن لكي يشربن من قهوة أهل البيت كرامة لهن، وفي فترة لاحقة استبدلت النساء بحراس من «النيادة» البدو.

الحياة الاجتماعية وبعض الظواهر الثقافية :

عندما تمر فترة قصيرة على ذهاب سفن الغوص يركب الطواويش «تجار اللؤلؤ» في سفنهم الخفيفة الوزن والسريعة وينطلقون إلى الهيرات - يرافقهم طاقم قليل العدد مكون من نوخذا «جعدي» ويزواه لا يتعدون أربعة بحارة في السفن الصغيرة وأقل من العشرة في السفن الأكبر حجما - من أجل الاطلاع على أحوال الغوص في المغاصات وشراء اللؤلؤ أولا بأول ثم يعودون به إلى المدينة مرة أخرى ولذلك فهم يعتبرون الوسيلة الأساسية في نقل أخبار أهل الغوص إلى السكان في المدينة وبالعكس. فكان البحارة يرسلون الرسائل مع الطواويش في بعض الأحيان. وأحيان أخرى يرسلون معهم السلام والتحيات إلى الاهل. وعندما يعودون يذهبون إلى الأهالي

وخاصة معارفهم وأقاربهم ويبلغونهم السلام ويقولون لهم فلان يسلم عليكم والفلانين في الهير الفلاني والثاني طرح في هير كذا ولقي حصباة أو بندر في دلما أو داس أو أنا قد اشتريت من عند الفلانين حصباه رأس أو حقيبية. فيطمئن الأهالي على آبائهم واخوانهم ويفرحون بأنهم يواجهون موسما جيدا.. الخ. من أخبار أهل الغوص كذلك أيضا عندما يعود أحد الغاصة بسبب المرض أو حادثة ما فأنه ينقل أخبار الغواويص إلى الأهالي المشتاقين القلقين ويعبرون عن شوقهم وخوفهم ببعض أبيات الشعر المشهورة مثل :

أي والله اللي تقطعت دونهم الاخـــبـــار

ولا من صـــديج عـــاني أنشـــده منه

أما الطواشون الكبار فيبقون في البلاد ويشترون اللؤلؤ من الطواشين الآخرين الذين يجلبونها من الهيرات. وفي بعض الأحيان يقوم الطواش الكبير بزيارة سفن الغوص في الهيرات إذا علم بوفرة المحصول فيجهز سفينته (الجليبوت) وينطلق بها إليهم. وفي الفترات التي يدخل بها الغواويص إلى البلاد «الدخلة» للتزود بالمؤن أو لإصلاح السفينة تكون فئة الطواشين على أهبة الاستعداد لاستقبالهم فكانوا يراقبون البحر ومنذ الوهلة التي يرون فيها شراعا مقبلا من بعيد فإنهم ينطلقون إليهم من فورهم بواسطة شواعيهم من اجل الفوز بشراء اللؤلؤ قبل الآخرين.

ونظرا لكون معظم المدن ساحلية فإن حياة الناس لها علاقة مباشرة بالبحر في معظم شؤون حياتهم. وفي موسم الغوص تنال النساء قدرا من الحرية أكبر فمع طلوع الفجر تتجه النساء إلى البحر لقضاء الحاجة والاستحمام. إذ لم تكن المنازل مزودة بكنيف أو ما يقوم مقامه - وغسل الاواني والملابس. وحتى الأسماك التي يشترونها أو يصيدونها يغسلونها على البحر قبل طبخها. ويصيدون الأسماك الصغيرة والربيان بواسطة قطعة من القماش حيث يشكلن دائرة في المكان وعندما تحاول السمكة الهروب يضعن قطعة القماش أمامها فتشتبك بها ويغنون أثناء ذلك فيقولون :

ياربيانه مالچ خانه - غير الشويه والدخانه

لاقينا ونلاقيكـــم - ونكسر خـــزاميكم

ويقوم بعض الأطفال والفتيات بشراء أحد أنواع «السموم» ويلقونه في البحر ويصيدون السمك بواسطته.

كما تقوم السفن التجارية القادمة من البصرة والكويت بزيارات لمعظم مدن قطر الساحلية وتبيع التمور والفواكه والحناء واللوز.. الخ على السكان. فتخوض بعض النساء والخدم مياه البحر إلى السفن لشراء ما عندها وأما إذا كان البندر عميقا مثل ساحل مدينة الغارية فإن السفن تلز بمحاذاة الشاطئ ويقوم بحارتها بإنزال التمور والزبيب ومواد التموين الأخرى وأكياس الحناء ومواد الزينة.. الخ على الشاطئ فتتوافد النسوة إلى السفينة الزائرة ويقمن بشراء ما يرغبن من البضائع المعروضة.

كما يلاحظ في هذا الموسم الحركة النسائية الدائبة في المدن والقرى وقيامهن بمعظم المهام التي تتطلبها حياتهن اليومية. أما في الفترة التي يكون الرجال متواجدين فيها فإنه نادرا ماترى سيدة تتجول في الفرجان والسكيك، وأما بالنسبة للسوق فقد كان ممنوعا على السيدات التجول فيه أو الذهاب إليه.

وعندما يمرض الطفل فإن الأم تسقيه مادة «العشرج» المغلية وإذا لم يشفى تحضر له «السقاطة» وهي سيدة تعالج حالات «السقاط» وهو مرض يصيب الأطفال ويتم علاجه بواسطة «التقمز» حيث تدخل المرأة الخبيرة أصابعها إلى سقف حلق الطفل وتقوم بالضغط عليه بطريقة معينة. وأيضا تعالج بعض الامراض بواسطة «المراخ» وهو عبارة عن تدليك لمكان الألم أو للجسم ككل وتسمى المرأة المعالجة «المراخة». أما بالنسبة للأمراض المستعصية فلقد كانوا يرسلون إلى «الجواية» وهي إمرأة خبيرة بالكي لكي تقوم بكي أماكن معينة لعلاج الأطفال والكبار. ويلاحظ ان النساء كن يعالجن النساء فقط والرجال يقوم رجال بعلاجهم وخاصة بواسطة «الكي بالنار» الذي كان أحد اشهر اساليب العلاج المعروفة آنذاك، هذا بالإضافة إلى العلاج بواسطة الاعشاب.

أما الأطفال فكانوا يقضون جل وقتهم في اللعب «بالفيان»[١١] في أوقات النهار وفي «البرايح»[١٢] في الليل. وهناك ألعاب متنوعة يمارسها الأطفال آنذاك. كما أن هناك ألعاب للصبيان وألعاب أخرى للبنات وأخرى مشتركة.

لعاب الأولاد :

- التيلـة :

كان اللعب بالتيلة أهم لعبة كانت تستأثر باهتمام الصبيان حتى سن الثانية عشر آنذاك. وهي عبارة عن كرات زجاجية ملونة صغيرة الحجم ويضع لها الأطفال مسارات مستقيمة ومتعددة في التراب لكي توضع بها الكرات وتكون لدى كل واحد منهم «تيلة» اي كرة زجاجية واحدة تكون هي الأداة الأساسية لديهم في إصابة باقي الكرات. ويقضي الأطفال جل وقتهم وهم يلعبون هذه اللعبة وسط الأتربة والغبار. ويلعبونها أمام بيوتهم وفي ساحات الفرجان وفي ظلال «الفيان» الدور.

- القبه والمطيوعية :

تتكون من قطعة خشبية مستطيلة كبيرة وقطعة أخرى على شكل قبة. ويقوم الأطفال بضرب القبة باللوح العريض. وهم ينقسمون إلى فريقين يتناوبون على ضرب القبة.



مجموعة من الأطفال وهم يمارسون إحدى العاب الطفولة
المصدر: مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

٣ - الخشيشة وهولو هولو :

تلعب في الليالي المقمرة وعلى شاطئ البحر وفي السكيك. ويشترك بها أكبر عدد ممكن من الأولاد وهذه اللعبة لازالت تمارس حتى الآن. ويقوم فيها أحد الأطفال الذي تقع عليه القرعة بتغطية عينية حتى يختبأ باقي الأطفال ثم يقولوا له هولو.. هولو فيبدأ بالبحث عنهم ومن يهرب ويصل إلى المكان المحدد (الحل) ينجو ومن يمسك به يكون عليه الدور... وهكذا. وقد تشترك البنات مع الأولاد في هذه اللعبة.

٤ -عظيم لاح :

تلعب هذه اللعبة أيضا في الليالي المقمرة حيث يقوم الأطفال بتغطية عيونهم بإيديهم حتى يلقى أحدهم بالعظم ثم يقوم الباقي بالبحث عن العظم وهم يغنون «عظيم لاح. لاح لاح، يالواح». وقد تشترك البنات في هذه اللعبة.

ألعاب البنات :

١ - **لكتور** : تلعبها الفيتات يوميا وهي عبارة عن مجموعة معينة من الحصى المستدير الشكل وصغير الحجم. ويمكن أن تلعبها فتاتين أو عدة فتيات. حيث تلقي إحداهن قطعة الحصى في الهواء وأثناء ذلك تقوم بجمع الباقي الموجود على الأرض بأصابعها وتعود لتلقف الحصاة قبل وصولها إلى الأرض بنفس اليد التي يوجد بها باقي الحصى وتستمر حتى تفشل في إحدى المرات فينتقل الدور إلى الأخرى بعد أن تحسب عدد المرات التي كسبتها.

٢ - **الخبصة** : يستخدمون في هذه اللعبة الخرز أو قطع من النقود المعدنية تدفن في التراب وتعمل تلال صغيرة وتفرق حتى لا يعرف مكان القطعة وتقوم إحداهن بحزر التلة التي تكون تحتها الخرزة فينتقل إليها الدور. وكانت الفتيات يعشقن هذه اللعبة ويستمررن يلعبنها حتى يرتفع الظل (الفي) عنهن وهن لاهيات.

٣ - **حديه بديه** : تقوم الفتيات بالجلوس على الأرض ويمددن أقدامهن وتقوم إحداهن بالغناء والعد في نفس الوقت «حديه بديه.. ناصر ديه.. حط الكور على الزنبور.. راسي يدور

يادوار.. شعبط خيلك شعبطها.. باب الجنة وباب النار.. تبين نمله لوّ قروص «فتقول الفتاة مثلا نملة فتقرصها وتثني القدم المقروصة ويعاد العد مع الغناء إلى أن تنتهي اللعبة بقرص جميع الاقدام.

٤ - ظلالوه :

تلعب في الليالي المقمرة . حيث تصطف الفتيات وتقوم إحداهن بإلقاء حصاه والفتاة التي تسقط الحصاه في ظلالها يكون عليها الدور باللحاق بالمجموعة حتى تتمكن من الإمساك بإحداهن وهكذا .



مجموعة من الفتيات يمارسن أحد ألعاب البنات

المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

٣ - المدود والمطوع :

المدود : يجلب بحارة الغوص عند عودهم عظام الطيور البحرية وأشهرها عظام طائر «اللوه» وبعد أن ينظف ويحك جيدا تستخدمه الفتيات في لعبة المدود حيث تقوم الفتاة بإلباس تلك العظام ملابس المرأة أو الرجل أو حتى الأطفال. فيلبسون المرأة «الدراعة» و«الدفة» و«المراري» المصنوعة من خرز «الزني» ويضعن لها شعر من الخيوط المبرومة. أما الرجال فيلبسونهم ثياب الشلاحيت والغترة والعقال.. الخ. ويعملن مساند صغيرة الحجم وسجاجيد (زل) ويضعن مجلس الرجال في صندوق ومجلس النساء في صندوق آخر ومعهن الأطفال. ويستخدمن بعض القواقع البحرية التي يحضرها الغواويص كهدية مثل العوعو والزني وبوزيزي، والعوعو يستخدم كجمل والزني يشبه الطبق وبوزيزي يستخدم كحارس أو ناطور. وتلعب هذه الفتيات هذه اللعبة في فترة القيلولة عندما ينام الأهل فيجلسن في مكان بعيد في إحدى الغرف أو الدور يلعبن بصوت هامس وبهدوء تام. وهذه اللعبة فيها تدريب للفتيات الصغيرات على دورهن الاجتماعي في الأسرة .



طفلتان تلعبان «بالمدود» أحد أشهر ألعاب البنات في تلك الفترة

المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

المطوع أو البروي : تقوم الفتيات بجمع قطع الجزاز المكسور من الطرق والنفايات ويلعبن بها لعبة المطوع حيث تستخدم القطعة المكسورة حسب شكلها إذا كانت مستطيلة استخدمت للإنسان والصغيرة طفل والعريضة كحائط أو مسند وتغرز في الطين حتى لا تسقط. وهي تشبه المدود. وتلعب الفتيات المطوع في خارج الدور في حين يلعبن بالمدود في الصناديق في داخل الدور.

وفي فترة «انحسار» المياه عن الشاطئ يسمح باللعب هناك فيجمعون القواقع والحوّيت ويصيدون «القباقب» والسمك الصغير «العفاطي».

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الأطفال (الأولاد والبنات) كانوا يلعبون بشكل جماعي وحتى سن الثانية عشرة ولا يوجد هناك فصل بين الجنسين وحتى أثناء فترة الدراسة لدى المطوع أو المطوعة.

هذا وعلى الرغم من الحياة الآمنة التي كان يعيشها الناس في ذلك الموسم إلا أن الأمر الوحيد الذي كان يزعجهم هو زيادة عدد حالات السرقة الليلية التي تتعرض لها المنازل في هدأة الليل. فحرارة الطقس قد فرضت على السكان المبيت خارج الدور، فكانوا يبنون «العريش» في وسط الحوش وهو عبارة عن قوائم خشبية فوقها سقف من «السميم» - الذي سبق ذكره - وله سلم يتسلقه الإنسان ويفرش فراشه فوقه وينام هناك بعيدا عن الهوام والحشرات وطلبا للهواء الذي يخفف من وطأة الحر. ونتيجة لذلك سهل على اللصوص الإغارة على الدور ونهبها بواسطة طريقة غريبة تتمثل في قيامهم بصب المياه على الجدار الخارجي للدار المبنية من الطين ثم يقومون بهدمها بهدوء بعد أن يصبح الطين هشا نتيجة صب الماء عليه فتفتح ثغرة في ظهر الدار فيدخل منها اللصوص ويقومون بسرقة ما يريدون وعندما تستيقظ المرأة وتدخل إلى حجرتها تفاجأ برؤية البحر أمامها.

ونتيجة لذلك استخدم الأهالي الكلاب كوسيلة كانت تحميهم من اللصوص والغرباء. فعندما تنبح الكلاب يتنبه السكان ويستيقظون من نومهم. وحتى في النهار إذا مر رجل غريب في المكان فإن الكلب يلاحقه حتى يوقفه. وكان الاعتماد على الكلاب أمرا حيويا خاصة في فترة غياب الرجال. وتستخدم أيضا في حماية الحيوانات من حمير وأغنام وماشية في البر من الحيوانات الضارية مثل الذئاب والضباع.

وإذا عض الكلب أحد الاشخاص فإن العضة تكون آثارها خطيرة وقد تودي بحياة ذلك الشخص. وكان علاج العضة يتم بواسطة قص جزء من شعر ذيل الكلب ووضعه في الجرح وكيّ مكان الجرح فورا.

وإذا ضاعت عنزة أو شاة تجتمع النساء والفتيات ويقمن بالبحث عنها. ويسمونها «الضالة» وأحيانا يتم تأجير «المصوت» أي منادي مقابل أجرة والذي يكون في أحيان كثيرة هو الراعي الذي يودع الناس ماشيتهم لديه لكي يرعاها. فيغني وهو يبحث عن «الضالة» والأطفال يرددون من ورائه فيقول :

من عين الضالة لا يغبيها[١٣]
ثرى يسمع مناديها
ياكل حرام مهب حلال
يامرحوم الوالدين
العيوز تنوح والشايب مذبوح
اللي يغبيها غبي الله منازله

فيسمع الناس صوت المنادي فإذا كانت لديهم نادوا على «المصوت» وأعطوه «الضالة» فيفرح الأهل ويقودونها إلى أصحابها. والكلمات السابقة التي يتغنى وينادي بها «المصوت» عبارة عن تهديد في البداية أن الذي سيخبئ الضالة فإنه سيأثم بفعلته هذه إذ أن ذلك حرام خاصة بعد أن سمع مناديها. ثم يستعطف الناس الذين قد استولوا عليها وهم يسمعونه الآن بأن الضالة تملكها عجوز وهي تنوح على عنزتها أو شاتها ثم يدعو على من أخفاها بأن يخفي الله منازله.

هذا وتترافق مع تلك الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية الكثير من الظواهر الثقافية المرافقة والتي تتراوح ما بين المأثورات الشفهية من أمثال وحكايات وأشعار وأغاني إلى رقصات شعبية وموسيقى وأداء حركي.وسنتطرق إلى تلك الظواهر الثقافية والتي تبرز في المدن الساحلية أثناء موسم الغوص.

وكانت جلسات الخياطة من أهم المناسبات التي تتبادل فيها النساء ما يحفظنه من مأثورات

شفهية وأشعار وحكايات وألغاز «وحزاوي» وكثير من المواقف الفكاهية والطرائف المتوارثة فتصبح جلسة «الخياطة» وسيلة ترفيهية لسيدات المجتمع تساعدهن على مواجهة مشاق الحياة اليومية التي يواجهنها بمفردهن بعد أن ذهب الأزواج والأبناء والآباء والأخوة لجني اللؤلؤ في عرض البحر ولا يعلمن ماذا سيصيبهم وهل سيعودون من رحلتهم الخطرة تلك أم لا.

ففي «مقاعد» الضحى يتم تبادل الأشعار والأحاديث الطريفة أثناء ممارستهن للخياطة بأنواعها، والتي سبق شرحها، وأطفالهن يلعبون في «الفيان» أي ظلال الدور «لكتور» و«المطيوعيه» و«المدود». وفي الليل تكون «الحزاوي» و«الألغاز» هي النمط الثقافي السائد في تلك الجلسات وهن يمارسن الخياطة على ضوء «السراية» الضعيف في الوقت الذي يلعب فيه الأطفال في «البرايح» اي الساحات أمام البيوت «الخشيشة» و«ظلالوه» و«عظيم سرى أو عظيم لاح»... إلخ.

نماذج لبعض ما يدور من أحاديث في تلك الجلسات :

أثناء موسم الغوص العود تعود سفن الغوص لفترات قصيرة للتزود بالمؤن وأثناء ذلك يقوم «اليزوه» بزيارة الأهل ويمدونهم بالمال «الخرجية» التي وزعها عليهم النوخذا والتي تخصم من العائد فيما بعد. فجاءت العجوز إلى إحدى جلسات «سف الخوص» وقالت للسيدات: ابشرن يابنات «دشت» الصيفية سيعطونكم «الخرجية». ولما جاء البحارة وزاروا أسرهم عادوا إلى الهيرات بدون أن يزودوا نساءهم بالخرجية. فرجعت العجوز بعد ذهاب «الغواويض» إلى السيدات وهن مجتمعات في إحدى جلسات سف الخوص ووجدتهن يسففن «سمة» من الخوص فقالت لهن :

دشو وخلوكم بلا خريية   خلو خراياكم مراحل صافي

وياجـــر إلي مـــن لفي   يبـــي خـــديـــد صافـــي

فردت عليها السيدات الشابات :

لـــي مـــن لفـــى[١٤]   بنوسده السمه[١٥]

بنخليـــه مثل الـــيريور   ملحــــــه دمــــه

وإذا أعطوهن «الخرجية» كانت كل واحدة منهن تحاول إثارة غيرة زميلاتها فتقول أنا زوجي أعطاني كذا فترد عليها الأخرى فتقول أنا أعطاني أكثر. وكل واحدة تمتدح زوجها أكثر. فيشاكسن بعضهن البعض فتقول إحداهن أن زوجها غيص مثلا وأفضل من زوج الأخرى الذي مهنته سيب فالغواصين أكثر شجاعة وأكثر نصيبا من الأرباح. فتقوم بالغناء على «الغيص» وتمتدح شجاعته وتقول :

الغيص وينك يابو ثمانين[١٦] يـــــروه وراونّي ديبـــــنه

من مات بيغمض المحبين[١٧] وان حـــيا بـيوفي ديونــه

فتمدح الغيص الذي يغوص في الهيرات العميقة ولا يهاب شيئا وتطلب أن يرى الناس «ديينه» الذي يملئه بالمحار. وتقول أن الغيص إذا مات نتيجة مهنته الخطرة فإن ذلك سيكون حسرة وحزنا على محبيه فهو الشجاع القوي البأس، وان نجى من الموت فهو بسبب نصيبه من الارباح سيتمكن من الوفاء بديونه.

وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى الاعتقاد السائد لدى الناس بأن الغيص أكثر شجاعة من باقي طاقم السفينة ودائما يقارن بالسيب الذي نتيجة مهنته على ظهر السفينة والتي تتركز في سحب الغواص من الماء يكون بعيدا عن الأخطار والأهوال التي يواجهها الاخير نتيجة عمق المياه وصعوبة التنفس وخطر الموت غرقا أو إفتراسا من قبل الأسماك المفترسة. ولذلك فإن للغيص مكانة اجتماعية في المجتمع لا يحصل عليها غيره من المشاركين في مهنة الغوص. وبالذات النساء فكن يحتجبن عن الغيص ولا يفعلن ذلك أمام السيب.

حكاية مرتبطة :

كان أحد السيوب يدخل على النساء من قريباته ويحادثهن ويمازحهن فكن لا يخجلن منه. وكان يرى كيف يحتجبن إذا مر أحد الغاصة. فإراد اختبارهن. وفي أحد المرات علق «الفطام» وهو أداة من أدوات الغوص في رقبته ودخل عليهن فلما رأته النسوة صرخن : فلان غيص، فلان غيص، وتراكضن يلبسن عباءاتهن ويحتجبن عنه فأنشد بيتا من الشعر فقال :

الغـيص مـقبـول ولو كـان دعـفـوس

والسـيـب لو هو جـيـد مـا يـبـوونه

أي أن النسـاء تقدر وتقبل بالغيص حتى ولو كـان بشعـا وأما السيب فـحتى لو كـان رجلا جيدا فهن لا يردنه .

وفي هذا المجال أي التفرقة بين مكانة الغيص والسيب في المجتمع كانت جلسات الخياطة كثيرا ما تكون مجالا للمنافسة والمعايرة بين زوجات أصحاب تلك المهن فتغني إحداهن ممازحة زميلتها فتقول :

تـوب تـوب يابـحـــــر تـوب تـوب

مــــا تـخـــاف من الله يابجـــر

هات الغـــواويص وخل لســيـــوب

أي رد الغواويص واترك السيوب.

فتقول الأخرى :

تـوب تـوب يابـحـــــر تـوب تـوب

مــــا تـخـــاف من الله يابحـــر

هات لســيـــوب وخل الغـــاصـــه

وتلك المشاكسات كانت تتـخذ طابعا فكاهيا ومرحا والغرض منها التسلية حتى حين عودة سفن الغوص.

ومن ضمن الظواهر الثقافيـة المرتبطة بموسم الغوص على اللؤلؤ ارتبـاط الألوان الغنائيـة التي كانت النسـاء تؤديها أثناء ممارساتهن اليومـيـة بالظروف التي كن يعانين منـهـا آنذاك وخاصة الخوف والقلق على الأهل والأزواج والأبناء في البـحـر فكان الغناء المرتبط بالطحن على أداة الرحى هو أنسب تلك الألوان في التـعـبـيـر عن معـاناتهن والذي كـان نوعـا من الغناء البطئ والحزين ويطلق عليه اسم «الفراقي» وهو لون اشتهر في المنطقة وارتبط بالبيئة البدوية بالذات وكان يمارس بمرافقة العزف على الربابة أو أثناء قلي القهوة وتميزت النسوة بغناؤه أثناء قيامهن بالطحن على الرحى وكن يعبرن عن شوقهن وقلقهن على الأهل من خلاله. انظر الأغنية التالية:

البارحة عيوني تباري[١٨] اليوازي[١٩]
ولعيون عسيت [٢٠]عن لذيذ المنامي
على عيال يارب تولهم[٢١] سريع التمامي
نساهم شيخ يعرف المواييب[٢٢]
الشيخ عبد الله ولد الامام

والأبيات السابقة تعبر عن مدى القلق الذي كان يصيب النساء على الرجال والأولاد في البحر. فهي لم تنم (اي صاحبة القصيدة) طوال الليل تراقب بعينيها حركة النجوم ومسيرها في السماء بعد أن رفضت عيناها النوم نتيجة القلق على الأولاد. وتطلب من الله أن يردهم سالمين. وتشتكي إلى «الشيخ» وتقول له كيف نسيت الرجال وانت الذي يعرف الواجبات وخبير بالأمور وتمدحه بأنه ابن الأمام تقصد «الشيخ جاسم». وذلك لأن الحاكم هو الذي يتفق مع «سردال البحر» على موعد القفال وهو الذي يقوم بتعيينه سنويا لكل موسم. وهذا نموذج آخر :

هب الغربي وهبت ريحه الغالي
عنبر ومسك وريحان وكاذي

في الأغنية السابقة تتذكر النساء احباؤهن وأزواجهن عند هبوب الرياح الغربية.

وهناك أغنيات أخرى مشهورة عن الغواويص تغنيها النساء أثناء طحن «الحب» أي القمح على الرحى أيضا تقول كلماتها :

ياذا الشهر باطويك طي لقريطيس[٢٣]
شهرين والثالث ايوون الغواريص

وهذه أغنية حزينة جدا تتمنى فيها المرأة أن تطوي الشهر كما تطوي الورقة أو القرطاس حتى لا تحس بمرور الوقت وتحين عودة «الغواويص» حسب موعدهم بعد إنقضاء الشهرين الأساسيين في الغوص العود وفي الشهر الثالث يبدأون بالعودة للتزود بالمؤن وزيارة الأهل في استراحة قصيرة.

وعلى نفس وزن الأغنية السابقة تطلب المرأة أن تعود سفن أهلها أو قبيلتها فتقول :

ياذا الشهر باطويك طي الحصيري [٢٤]

شهرين والثالث ايوون العسيري

وأثناء دق الحبوب في المناحيز تغني النساء أيضا على أهليهم وسفنهم مثال ذلك :

هاذاك الشارد قلط سار

والطوس والطبل رنى

له مدفع في الصدر ثار

تشير الأغنية إلى أن السفينة المسماة بالشارد قد تقدمت للسير إلى مغاصات اللؤلؤ وبحارتها يضربون الطبول والطوس وهم يغنون، والمدفع الذي في سدر السفينة قد ثار إحتفالا بالمناسبة.

أغنية أخرى :

حس [٢٥] الطواويش ياو

وابوي آنا من دونه

كنه هلال رمضان

ياناس فزوله

وتطلب الأمهات من الأطفال أن يغنوا على أبائهم فيقولن للطفل قل:

بنينا على نعيه مقاصير ونطلب عسي حسن اينا

ان يه مع كرام الريابيل وان ذبح لك الحايل سمينه

أو

ياذا الخويصه ياخمج خمام الغوص

وياظلل على أبويه لي شفته يغوص

تحتوي الأغنية السابقة على معنى جميل عن حب الطفل لوالده ورغبته في أن يظلل عليه وهو يغوص حتى لا يشعر بحرارة الشمس. وهي تعكس لهفة الأمهات واحساسهن بما يعاني

منه الرجال من حرارة الشمس أثناء غوصهم لى اللؤلؤ. وتحاولن التعبير عن قلقهن على لسان أطفالهن.

أيضا يغني الأطفال :

سلمـــوا علـى بويـه وقـــولـه لـه
شـيخ اليـمـاعـه واتبـعـوا شـوره
ياليـتني على الدقل حـمـامـه
وابشـــر الغـــواص بالســلامــه
ياليـتني على الدقل عـصـفـوره
وابشـــر الطواش بالمحـــصـــوله

ويلاحظ ظهور بعض القيم الاقتصادية الهامة في مجتمع الغوص على لسان الأطفال في الأغنية السابقة فالطفل يتمنى أن يكون حمامة تطير وتحط على دقل السفينة لكي يبشر الغواص بالسلامة من مخاطر مهنته، كما يتمنى أن يكون عصفوره تطير وتحط على دقل سفينة الطواش (تاجر اللؤلؤ) لكي يبشره بالمحصول الوفير الذي جناه الغواصين من قاع البحر. كما يظهر في بداية الأغنية قيم الفخر التي تظهر في الكثير من أغاني الاطفال بالأباء والسفن وباقي ممتلكات العائلة حيث يرسل الطفل السلام لوالده شيخ القبيلة ويطلب من الناس أن تتبع رأيه وترضخ لسلطته.

وتتنوع مداعبات الكبار للأطفال فذلك الشاعر ينشد على كلب الفتيات الصغيرات عندما قام أحدهم بضربه ويدعو على من ضربه فيقول :

حـسـبي على من طق كليب الغنادير[٢٦]
اللي بصـــوته حـــامي السكتـــينا
ان كـــانه غـــيص يعل تقـصـه اليـراير
وان كـــانه ســيب يعل تعـــضب يمينه

فالكلب هذا ملك للفتيات الجميلات ويحمي المكان بنباحه من الأغراب فكيف يجرأ أحدهم على ضربه. فإذا كان الذي قد قام بضربه غيصا فأنه يدعو عليه بأنه تقطعه أسماك القرش

لمفترسة. وأن كان سيبا فأنه يدعو على يديه بأن يصيبها الشلل. فهو يدعو على كل واحد منهما حسب مخاطر مهنته التي يمارسها. كما يلاحظ من الأنشودة أنها تفتخر بالكلب الذي يحمي بصوته المكان. وهذا يؤكد الكلام السابق عن درو الكلاب في حماية الفرجان من الأغراب.

ومن المظاهر الترفيهية في ليالي الصيف المقمرة قيام النساء والفتيات بأداء رقصة «المراداة» والتي لا تمارس إلا في حالة غياب الرجال سواء في الغوص أو غيره وبالذات في لليل. أما في الأعياد فأنها لا تمارس إلا نهارا في فترة العصر حتى المغرب. وفي موسم لغوص تجتمع النساء ليلا في «البرايح» حيث ينقسمن إلى صفين متقابلين ويبدأ الصف الاول بالغناء ويرد الصف الآخر عليهم وهكذا. وتعتبر رقصة المراداة وسيلة ترفيهية هامة عند المجتمع النسائي وتؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية والسياسية... إلخ. أما في موسم الغوص فأنها تكون بمثابة أداة تعبر فيها النساء عن افتخارهن بأهلن وما يملكونه من سفن وأيضا يعبرن من خلال تلك الأغاني عن قلقهن وشوقهن إلى الأهالي الغائبين. فيغنين :

ياذا القمر ياللي مشرق ورايح

سلم على اللي مرقده في البرايح

أغنية أخرى

وخلوك يا طوق

كل الخشب جلت[٢٧]

وخلوك[٢٨] ياطوق

واتريا أيي من فوق

واتريا رميه الرايه[٢٩] من فوق

أي انهن بعد أن أقلعت سفن الغوص لاهم لهن سوى انتظار رؤية الأعلام والرايات على أشرعة السفن وهي مقبلة على الشاطئ معلنة إنتهاء الموسم.

أغنية أخرى :

وايش حملك في خشبنا بالقويعه(٣٠)

ايش حـــملك في خـــشـــبنا

لا انت بتــغـوصين وقت الغــواصــه

ولا انـت بتـــــــــــــسويـن

أما الحدث المهم والحزين والذي كانت تعاني منه النساء هو أن يصادف العيد والبحارة في البحر فيكون عيدا بدون فرحة. مع أن الكثير من النواخذة كان يعود ببحارته إلى البلاد في وقت العيد حتي يعيدوا مع أسرهم ويجددوا نشاطهم ويعودوا إلى المغاصات بعد ذلك بحماس أكبر. ولكن إذا صادف وقت العيد مع زمن «الغوص العود» وهو الغوص الأساسي الذي كان يتم فيه جنى معظم محصول العام بسبب ملاءمة الظروف المناخية لعملية الغوص في الأعماق ولعملية حركة السفن في الهيرات حيث تكون عبارة عن شهرين هما شهر يوليو واغسطس (٧ ، ٨) وهما يتميزان بالحرارة الشديدة وسكون الرياح مما يوفر للغواص دفء المياه (إذ ان أصعب شيء كان يواجهه الغواص هو الغوص والطقس بارد) وللسفينة البعد عن مخاطر الرياح وتقلبات الطقس التي قد تؤدي إلى غرقها فهي سفن شراعية ليس إلا. وإذا صادف العيد في تلك الفترة فإن معظم سفن الغوص تبقى في المغاصات مما يؤثر على كلا الطرفين أهل البحر وأهل البر. لذلك فإن النساء كن يستئن كثيرا من النوخذا الذي لا يعود بالبحارة طلبا للربح فيدعين عليهم قائلات :

«اجعل غوصهم خرط ومه»

أي لا يجدون في المحار سوى مكوناته من الأنسجة والماء.

أو يقلن :

«يعل هير يغوصونه ما يلقون فيه محار»

أي أن يجدوا الهير الذي يغوصون فيه خاليا من المحار .

ويغنين في المراداه - التي هي بمثابة المظهر الاحتفالي التعبير الأساسي في أيام الأعياد بالذات - على عيدهن البائس قائلات :

عيد الضحايا عيدو به على الهير

ما تم من النسوان ما ينقل الطير

واللي عيد بهم هيس ولد هيس

أي أن العيد الكبير وهو «عيد الاضحى» قد عيد به البحارة على الهير في عرض البحر ولذلك فأن النساء من حزنهن قد هزلن ولم يبقى من اجسادهن ما يشبع حتى معدة الطير. ولذلك فهن يدعين على النوخذا الذي عيد بهم على الهير ولم يعود بهم إلى البلاد.

أو يغنين :

عيدو به على الهير

عيد لاضحى معيدين به على الهير

والعيد يا عبدالله عيد الغنادير

وهنا ينتقدن عيد الغواويص الذي عيدو به على الهير فالعيد ليس له جمال ولا روعة هناك وإنما العيد هو عيد «الغنادير».

وفي أغان أخرى نجدهن يتمنين للغواصين السعادة والهناء بغوصهم الذي يغوصونه مع رغبتهم الدفينة في عودتهم فيشرن إلى أنهن أي النساء لم يعد لديهن مال ولا «خرجية» فالنساء قد اشترين بها الحنة والبطاطيل، فيغنين :

بالهنا يا غواويص غوصوا عليكم

بالهنا ياغواويص

فلوسكم قدررها[٣٢] وحنّه وبطاطيل

تليا[٣٢] فلوسكم قدروها

وحنّة وبطاطيل

شـرو بها النسوان حنّة وبطاطيل

أيضا من ضمن العادات الاجتماعية أن تتم «خطبة» الشاب للفتاة قبل موسم الغوص. وبعد العودة يتم الزفاف خاصة إذا واجه موسما ناجحا. ولذلك فإن موسم حفلات الزواج يكون بعد انتهاء موسم الغوص ولذلك نجد في بعض أغاني المراداه والأشعار إشارات إلى ذلك كما

يتضح من هذه الأغنية :

على اللاش يالبورحمه[٣٣]

لا انت اتيّ على اللاش

بومبسم قماش

حلوه على صالح

بومبسم قماش

وتشير كلمات الأغنية إلى أحدهم بالغطاء الذي كان يلبسه على رأسه وهو الغترة والتي كانت تسمى حينئذ «البورحمة» فتقول يالبورحمة اي يامن لبس البورحمه وتمتدح صفاته الشخصية وشكله. وكانت النساء تؤدي هذه الأغنية في رقصة «المراداه».

وتأمر النساء الفتيات بالغناء والتمجيد بسفن أهاليهم فتجد كل قبيلة تمجد ماتملكه من السفن الشهيرة في المجتمع. فمثلا يقلن :

جلت النيره والنشر طاح

حافظ على من سار فيها

سار فيها احمد شمعت الدار

مقديم اللي يقيض على الهير

يغوصون ويوبون قنية

صبو حق نور حب الهيل

وقلادتها المنثورية

وكانت السفن الضخمة «السلفية» أي التي تستخدم نظام «السلف» في تمويل رحلتها لا تعود إلى البلاد في الغوص العود إلا بعد مرور فترة شهرين أو شهر ونصف، أما السفن الصغيرة الحجم «الخماسه» أي التي تستخدم نظام الخماميس في تمويل رحلتها فإنها لا تستطيع البقاء لفترة طويلة في البحر بسبب نفاذ مؤونتها فتعود إلى البلاد بعد فترة أسبوعين أو ثلاثة. وكان «مقديم» من السفن الضخمة والتي تقضي فترة الصيف في الهيرات بسبب

كبر حجمها وضخامة عدد طاقمها فكانت سفن التموين تذهب إلى الهيرات لكي تقوم بتزويد السفن الضخمة بالماء والزاد حتى لا تضطر للعودة إلى البلاد. والأغنية السابقة تشير إلى ذلك كما تشير إلى أن بحارتها يغوصون في الأعماق ويجنون اللؤلؤ الثمين من نوع «القني» الذي سيباع ويكون ثمنه بالجنيهات الذهبية والتي ستصب فيما بعد على شكل أساور وقلادات للفتاة. فالفتيات يتمنين أن تنجح الرحلة لانها ستكون سببا في ثراء أسرهن وبالتالي سيلبسن الحلي الذهبية التي سيقوم الصائغ بصبها أي تشكيلها لهن بناء على طلب أهاليهن.

أغنية أخرى :

أم الحنايا يدفوها(٣٥) على السيف

فيها صبيان تير المياديف

يانوخذاهم لا تصلب (٣٦)عليهم

ترى البحر بارد وغصب عليهم

ترى حبال الغوص قصص ايدهم

تطلب النساء من النوخذا أن لا يضغط على الغاصة بالعمل المستمر طول اليوم فالبحر بارد وهم لا يستطيعون الغوص لفترات طويلة في مياهه الباردة، كما أن الحبال الخشنة قد قطعت أيديهم بسبب سحبهم لحبل «الخراب» باستمرار كلما أراد النوخذا تغيير مكان السفينة في الهير.

أيضا هناك أغنية تعبر عن الشوق والحنين إلى الأهل في عرض البحر وتقول :

ياسايرين الغوص باسير وياكم

باقعد على الفنه وباسمع حجاياكم

وان يريّتّو الميداف بايّر وياكم

فهذا الإنسان المشتاق يتمنى الذهاب مع المتجهين إلى هيرات اللؤلؤ. رغبة منه في الجلوس معهم وسماع أحاديثهم وحتى لو تطلب الأمر أن يشاركهم في العمل الشاق وهو «جر المجاديف أو التجديف» فإنه سيفعل ذلك بطيبة خاطر.

ورغم ما في تلك الأغاني والأناشيد والرقصات من إظهار للمشاعر والعواطف إلا أنه في ضوء العادات والتقاليد المفضلة آنذاك والتي لا تحبذ التعبير عن العواطف قد تكون تلك التعبيرات مستغربة، ومع ذلك فإن هناك استثناءات كانت تبيحها ظروف المجتمع الاقتصادية الشاقة والتي فرضت على الذكور من السكان القيام برحلات الغوص الخطرة فأصبح هناك نوع من التسامح في اظهار العواطف خاصر بالنبر للنساء. وان كانت ضمن التعبيرات التقليدية في أسلوبهم المتوارث في تمجيد الأهل والاخوان والممتلكات من سفن ودور وعبيد وخدم. انظر الأغنية التالية :

خليلي بنى له برزان

رفيع الدري[٣٧] حلو المباني

وفي لايحته تسعين بناي

وتسعين عبد مجلماني[٣٨]

وكانت هناك قيود اجتماعية تفرض على المرأة فلا تخرج إلا متخفية لقضاء حاجتها وكانت تلبس عباءة ثقيلة من شعر الغنم الاسود أو البني اللون (والبنية منها تسمى بشت) تجلب من فارس ومن القطيف وتلبسها فوق «الدراعه» و«الثوب» الذي لابد أن يكون طويلا تجر أذياله في التراب. وإذا حدث وأن رفعت هذا الثوب قليلا عن الأرض انتقدوها وقالوا: «عنبوه رافعه ثوبها» وعلى وجهها البرقع الطويل تمشي وهي تدوس في ثيابها. مع ذلك فإن الأغاني لا تعدم بعض التعبيرات الجريئة مثل :

ويطريّ عليّ لي دشو هل الغوص البحر

ويطري عليّ لي طقو هل الغي خماري

ورغم أن معظمها أشعار قد أنشدها شعراء رجال إلا أن النساء يتغنين بها في رقصات المراداه. والأغنيتين الأخيرتين تؤدى أثناء طق الطبول في حفلات الزفاف والنذور والختان وحتى في الأوقات العادية. ففي ليالي الصيف عندما لا يكون هناك رجال فإن النساء وخاصة المولدات يقمن بضرب الدفوف والغناء.

الهـوامش

(١) مزر الماء : جلب الماء من العيون إلى المنازل والسفن ويطلق على العاملين بتلك المهنة المزازير أو الزراريع.

(٢) الجحال : وعاء كبير من الفخار تحتفظ فيه المياه ويعمل على تبريدها بواسطة الرشح وهناك وعاء أصغر منه حجما يسمى الحب وهو خاص بحفظ مياه الشرب.

(٣) الجلبان : جمع جليب وهي بئر الماء المحفور في الأرض وهي سطحية نسبيا وغير عميقة .

(٤) الهـواوين : مـفردها: هاون، أداة لطحن القـهـوة مـصنوعـة من النحـاس وتتكون من آنيـة عـمـيـقـة توضع بداخلها القهوة ويد ثقيلة تدق بها القهوة.

(٥) السراية : أو السراج مصنوعة من فتيلة في تمره معجونة وتغمر بالكاز ويتم إشعالها فتضيء.

(٦) النييب : النجيب.

(٧) أيود : الكريم.

(٨) اليود : الكرم أو الجود.

(٩) الحيا : المطر.

(١٠) المحالي : الجافة أو الممحلة من قلة المطر.

(١١) الفيان : جمع فيّ، وهي ظلال الدور.

(١٢) البرايح : جمع براحه وهي الساحات الخالية أمام المنازل والفرجان.

(١٣) يغبيها : يخفيها.

(٤) لفى : عاد.

(١٥) السمه : هي التي كانوا يسفونها بأيديهن وهي تشبه الحصير العريض وكان يستخدم لتغطية الكباره والعرش التي ينام الناس عليها في الليالي الحارة.

(١٦) بوثمانين : أي يغوص في الهير الذي يبلغ عمقه ثمانين باعا.

(١٧) يغمض : يحزن ويتحسر.

(١٨) تبارى : تراقب وتلاحق بالنظر .

(١٩) اليوازي : نجم الجوزاء .

(٢٠) عيت : رفضت.

(٢١) تولهم : تردهم.

(٢٢) المواييب : الواجبات والمسئوليات .

(٢٣) القريطيس : القرطاس.

(٢٤) الحصيري : هو الحصير وهو عبارة عن سجادة مصنوعة من خوص النخيل.

(٢٥) حس : صوت.

(٢٦) الغنادير : الفتيات صغيرات السن والجميلات .

(٢٧) جلت : أقلعت .

(٢٨) اتريا : انتظر.

(٢٩) الراية : العلم .

(٣٠) القوبعه : أحد أنواع الطيور.

(٣١) قدروها : انفقوها كلها.

(٣٢) تليا : بقايا.

(٣٣) البورحمه : كان يسمون الغطاء الذي يضعه الرجل على رأسه «البورحمه» وهي الغترة وكانت تلك التسمية «اي البورحمه» هي الأكثر تداولا آنذاك.

(٣٤) قنيه : أجود أنواع اللؤلؤ يسمى القني.

(٣٥) يدفوها : عندما تعود السفن قالوا : يدفت إلى البر وعندما تنطلق إلى البحر قالوا : خطفت. في الحالة الأولى قد تستخدم المجاديف من اجل الاقتراب من الشاطئ وفي الأخرى تستخدم الشراع فتعبير الخطفة لا يكون إلا مع استخدام الشراع.

(٣٦) تصلب : لا تضغط عليهم بالعمل لفترات طويلة.

(٣٧) الدري : الدرج.

(٣٨) مجلماني : متكلم . أي يتجاوب عندما ينادي عليه.

الفصل الثالث

الاستعدادات النسائية لموعد القفال

كان القفال بمثابة يوم عيد لدى السكان. وحتى أنه يعتبر العيد الكبير بالنسبة لهم، فرحة بعودة الأهل سالمين من الرحلة الخطرة الطويلة.

لذلك نجد أن النساء يقمن بترتيبات متعددة استعدادا لذلك اليوم الموعود. من ترتيب وتنظيف البيوت، وإعداد مواد الزينة المختلفة التي سوف يستخدمنها، وخياطة الملابس للزوج وللأسرة ولأنفسهن. وترتيبات خاصة بإعداد بعض الأكلات المفضلة.. الخ من الاستعدادات التي تنهمك بها النساء في العشرة أيام التي تسبق موعد القفال.

فبعد أن يبدأ الطقس بالتحسن بعد خروج فصل الصيف، ويطيب الهواء بهبوب رياح السهيل، ويبرد الزمان. يتوقع الأهالي عودة الغواصين فتتجه النساء إلى ترتيباتهن الخاصة «بالقفال».

أولا : خياطة أو حياكة الملابس :

سبق أن أشرنا إلى جلسات الخياطة النسائية كأحد مظاهر الحياة اليومية في المجتمع. وذلك نتيجة عدة عوامل أهمها على الأطلاق كون عملية خياطة الملابس مهنة نسائية أساسية في ذلك الوقت تمارسها معظم النساء. أما كأحد الاعباء المنزلية أو كمهنة تمارسها المرأة من أجل تحسين مستوى الأسرة الاقتصادي، وأما كأحد أساليب التعاون السائدة في مجتمع الغوص. وهناك عامل أخر لا يقل أهمية. وهو أن «قطر» كانت في تلك الفترة لا تعتبر مركزا تجاريا أو أحد المراكز التي تمر بها الطرق التجارية في المنطقة، بل بالعكس فإن معظم المواد الأساسية والسلع التي يحتاجها السكان كانت تجلب للبلاد من البحرين أو من القطيف في إقليم الاحساء بشبه الجزيرة العربية وهما أقرب مركزين من قطر. هذا بالإضافة إلى بعض الزيارات التجارية لسفن التجارة البحرية من مدينة البصرة بالعراق والكويت ومدينة لنجه على الساحل الفارسي.

ونجد أن معظم تلك السلع كانت تستورد في شكلها الخام ويقوم السكان بعد ذلك باستخدامها بعد أن تمر بعمليات تعديل وتطويع لتتناسب مع الاستخدامات المحلية لتلك المواد والسلع. وفي حالات قليلة تجلب المواد مصنعة خاصة عندما يقوم بعض التجار والطواشين الكبار بزيارات إلى أسواق اللؤلؤ في بومبي بالهند فيجلبون معهم بعض السلع والملابس

وبعض قطع الأثاث. هذا عدا بعض التجار الذين كانوا يمارسون التجارة البحرية في فصل الشتاء بعد توقف موسم الغوص.

لقد كانت معظم الأدوات المستخدمة في الحياكة من أبر وقبيب وخيوط والتي قد تكون من خيوط البريسم الملونة من جميع الألوان أو الخيوط الذهبية والزري - وتأتي في لونين زري أصفر أو ذهبي - وزري فضي -. وكانت النساء تشتري الزري بالوزن. أي توزن عند البائع بالتوله ويبلغ سعر التولة آنذاك روبية. وكلما قل الوزن قل السعر. وتكون على شكل مستطيل يسمونه (معاجيل). وهناك «التل أو التلي» ويجلب من الخارج وهو يشبه الزري. وهو مادة مصنعة تقوم النساء بخياطتها فوق ثوب المرأة. أما خيوط البريسم فتأتي في شكل «وشايع».

وكان الزري يحتاج إلى عملية تلميع قبل استخدامه فتقوم النساء بطرقه وسحنه بواسطة بعض أنواع القواقع البحرية مثل (الزني) وهي قواقع بحرية تتميز بكون سطحها أملس وثقيلة نسبيا فيسحن الزري بواسطتها حتى ينصقل ويزداد لمعانه، والمرأة إذا لم يكن لديها (زني) تقترضه من جارتها. وتستخدم خيوط الزري والبريسم في عمل النقوش على أكمام وجيب الثياب النسائية .

وعلى الرغم من ندرة الاقمشة آنذاك إلا أن هناك عدة أنواع كانت تجلب إلى البلاد أهمها :

عود الخيزران : قماش حريري به خيوط ملونة.

بومرضوف : وهو يأتي في شكل لونين. اما أن يكون أسود أو أحمر وهو سادة غير مشجر أو لا توجد به أية رسوم أو أشكال.

حل وطار : قماش حريري خفيف يعتبر من أقدم الأنواع الموجودة في الأسواق المحلية.

الباك : وهو قماش ثقيل يشبه قماش التفته ويسمى زربفت ويصنعون منه «الدراريع والسراويل».

رش المطر : قماش خام منقوش بنقوط صغيرة.

بن بازار : حرير من النوع الخفيف. وهو أغلى الأقمشة وبه خطوط شفافة، يشبه التفته الخفيفة جدا، ويجلب من الهند ويكون لونه أبيض فتصبغه النساء بصبغ اسمه «فوفل» بألوان حمراء أو خضراء.

حبة القهوة : قماش سميك نسبيا فيه نقشج تشبه حبة القهوة.

فيّ الليوان : خام مشجر .

يلاحظ ان التسميات السابقة لانواع الاقمشة مقتبسة من مفردات لغوية محلية وبعضها تشبه بالظروف المحيطة مثل «في الليوان» و«رش المطر» و«عود الخيزران»... الخ.

وهناك أنواع أخرى من الأقمشة كانت النساء يجتهدن في إعدادها للخياطة سواء من حيث عملية تحويل اللون (صبغة) أو سماكة القماش وصعوبة خياطته أو من حيث النقوش وأسلوب التفصيل نفسه.

قماش الامريكاني : وهو قماش خاص بملابس الرجال. ذا لون ابيض ويخطن منه معظم ملابس الرجال وأحيانا يقمن بتحويل لونه إلى لون آخر يسمى الثوب «الدمي» أي الأحمر الداكن. وهو أحد اساليب التنويع في الألوان ويلبس في فصل الشتاء. أما في فصل الصيف فإن معظم ملابس الرجال تكون بيضاء اللون وخاصة ثوب «الشلحات» الذي يتميز بشفافيته وخفة قماشه واتساعه فهو فضفاض جدا ويلائم الطقس الحار.

وعندما ترغب المرأة بخياطة الثوب «الدمي» كانت تقوم بشراء القماش «الامريكاني» الأبيض وتقوم بصبغه بطريقتين:

١ - تنقع قشر الرمان وأوراق شجر «القرط» وحناء ويفت. ثم تقوم بتصفية ماءه وتضع القماش الأبيض فيه فيتحول إلى اللون البني.

٢ - تغلى الحناء واليفت على النار ثم يزل الماء في آنية نظيفة، وبعد ذلك يغمر القماش الابيض فيها. وفي اليوم التالي ترفعه من الماء وتغسله وتطويه وتضعه تحت شيء ثقيل حتى تستقيم قطعة القماش.

بعد ذلك تبدأ المرأة بخياطة الثوب بطريقة «الشلاله والجف» بعد أن تقصه. ثم تبدأ بعمل «الكورار». والكورار عملية صعبة تشترك فيها ثلاث سيدات اثنتان «يدوخلون» وواحدة تضرب بالإبرة على قطعة القماش. أي أن الخيوط تكون ملفوفة على يد زميلات الخياطة وتنتهي في يدها، هي تخيط وهم يحركون الخيوط لها بواسطة حركات معينة من أيديهن.

الكورار قد يكون بخيوط الزري أو بخيوط البريسم. وإذا كان بالزري يسحن ويصقل

بالزنى بعد عمل الكورار. ووراء الكورار تعمل ضروس الخيل. والكورار والنقوش تكون على الجيب والأكمام فقط بالنسبة لثياب الرجال. أما ثياب النساء فإنه بالإضافة إلى ذلك يكون على الذيل وعلى قدم «السروال» والذي يتميز إلى جانب الكورار بنقشة «اليوزية» و«الدالات».

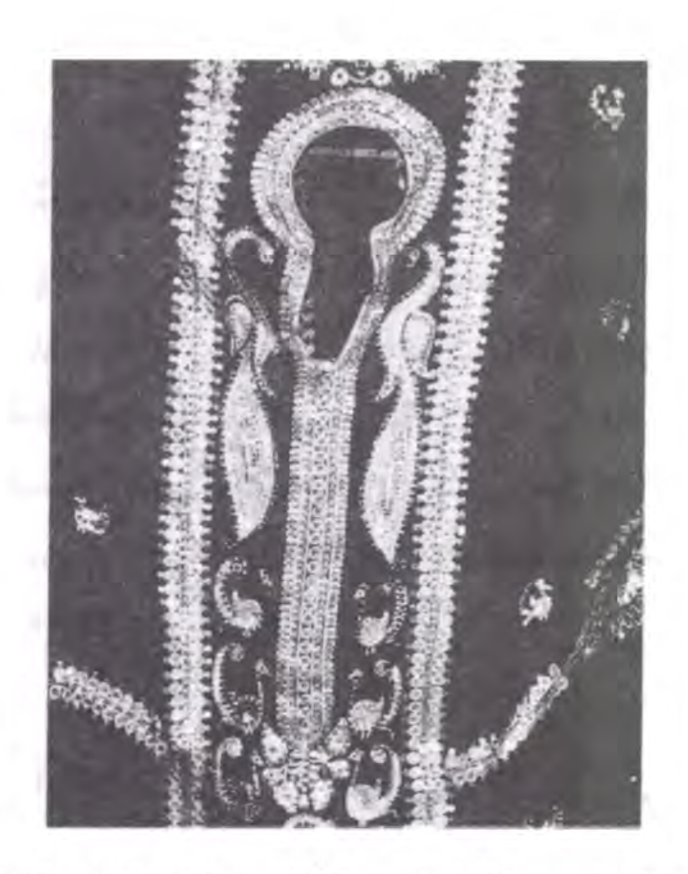
بعد ذلك تعمل «الكركوشة» لجيب ثوب الرجل. وأحيانا تعمل «غلوقة» للجيب بدون كركوشة أو أزرار بّدلا منها من خيوط الزري.

أما ملابس السيدات فلها نقوش عديدة ومتنوعة وتحتاج إلى مهارة خاصة من الحائكات. مثل نقشة الشميله، الودعة، العوعو، والدالة، اليوزية، النثره أو دوسة الطير... إلخ. وتنقش تلك النقوش على «الدراريع» و«بخانق الفتيات». وذلك خلف الكورار في الأكمام والذيل والجيب و«البخنق» أما «التعصي» فهو من خيوط البريسم على شكل مستطيل من الكتف حتى الكم، وهناك نوع آخر يسمى «التقطب» حيث تقطب أطراف «الدراعة» بخيوط البريسم الأخضر والأحمر.

ولقد كان هناك اسلوبان في خياطة النقوش هما «اللّيِ» و«البخيه» بالإضافة إلى «العرية» وهي خاصة بخياطة «ثوب المسلت» وهو الثوب الذي تلبسه المرأة فوق الدراعة ويتميز بنقشته البسيطة والتي هي عبارة عن سلسلة تصل ما بين الأقسام الرئيسية للثوب، وتكون السلسلة أما من خيوط البريسم (أحمر أو أخضر) وأما بسلسه من خيوط الزري. وثوب «العرّية» نقشته خفيفة جدا ومستقيمة.

أما «الثوب المركب» فيتميز بصعوبة إعداده فهو يخاط أولا ثم بنقش بنقوش «الودعة» و«دوسة الطير». أو «الودعة» و«الحوراب» الذي يصل بين نقشة «الودعات». والثوب المركب تلبسه المرأة فوق ملابسها ويتميز مثل (ثوب العرية) بالإتساع والطول. وهناك أغنية على الثوب المركب الذي تتفاخر النساء بلبسه.

ثوبين على المركب ادعو لنا يالدواسر
وخشو[٢] حصة عن الحر في روشن[٣] هفها في[٤]
يعل قلبها ما يحتر ولا يجيها خلافي



ثوب نسائي من نوع المركب فيه عدة أنواع من النقوش بخيوط الزري
المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

وهناك نوع مهم من الثياب وهو «الثوب المجرح» أو «الثياب المجاريح» ويستخدم في أيام النشر[٥] في القفال والأعياد. وتلبسه السيدات والفتيات. وهو يخاط بنفس الطريقة السابقة ولكنه عبارة عن عدة ألوان (الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق... إلخ أو يتكون من لونين مثلا) توصل بواسطة «العريه» أو «السلسلة». وهو من أجمل أنواع الثياب التي تلبسها النساء.

وهناك أنواع أخرى من الثياب مثل ثوب «خشم البلبول» وهو عبارة عن ثلاثة ألوان أسود وأخضر وأحمر، وثوب التور وثوب الجز وهو النوع الخشن من الثياب. فالثياب تتراوح ما بين الحرير والقطن والتور والجز.

الدفاف والبشوت:

١ - الدفاف والبشوت المحوريه :

تخيط «الدفة» أي العباءة وهي ثقيلة أو «البشت» الذي يكون خفيف وهو الأكثر استخداما لدى السيدات آنذاك ويكون في الغالب بني اللون أو قريب جدا من اللون الأصفر ويشبه «البشت» الذي يستخدمه الرجال، ويخيطان بأسلوب «الحوارب» فيقال دفة محوربة وبشت محورب، حيث تخيط الأطراف بالزري وتسمى الطريقة «مكسر» وورائها بخية (نقشة من خيوط البريسم الحمراء) وبعدها شرك (نقشة من خيوط الزري) ثم بخية حمراء ووراءها شرك (أي بخيتان وشركان).

٢ - البشت المكسر :

خياط بالزري على أطراف البشت ومن وراءها بخية من البريسم الأحمر ويتميز البشت المكسر بالقيطان المعلق بها الكراكيش .

٣ - بشت مجتف :

يشبه الأسلوب السابق. ولكن يكثف الزري ويزداد حتى يصل إلى منتصف يد البشت.

٤ - بشت عماني مجتف :

يكثف الزري على الأكتاف. وهو من أفخم الأنواع، وهذه أبيات شعرية تدل على مكانة هذا النوع :

عطاج وارضاج يا فلانه من الغالي
سبع جناين(٦) وترس البيت يهالي(٧)
وبشت العماني على فلانه يقصرونه(٨)

٥ - دفة الماهود :

عبارة عن قماش من الحرير الحث يحدث حفيف أثناء لبسه والمشي به. وهو غالي السعر ولونه اسود تصنع منه عباءة «الماهود» وتزين بمكسر زري حول أطرافها.

٦ - فرص البطاطيل :

كذلك تقوم النساء بإعداد «البطاطيل والبراقع». وتستورد الماده الخام التي تصنع منها البطولة من الخارج وخاصة من فارس والهند. ثم يقمن بتفصيلها ويخيطونها بالإبرة بأسلوب «الشلالة» ثم تخيط الجبهة بأسلوب «الفرص» ثم يضعون عود خشبي لأنف البطولة ويقال أن بعض السيدات كن يضعن بدلا منه قطعة من «العود» الغالي الثمن ذو الرائحة الفاخرة. ويصنعن لها خيطا يربطنها به عندما يلبسنها. وفي بعض الأحيان تثبت قطع ذهبية على جبهة البطولة مستديرة أو على شكل نجوم ويسمى «البرقع الريسي» وأحيانا ترصع القطع الذهبية حتى على خيط البطولة وخاصة السيدات الثريات. وتفتخر المرأة التي لديها برقع ريسي بذلك.

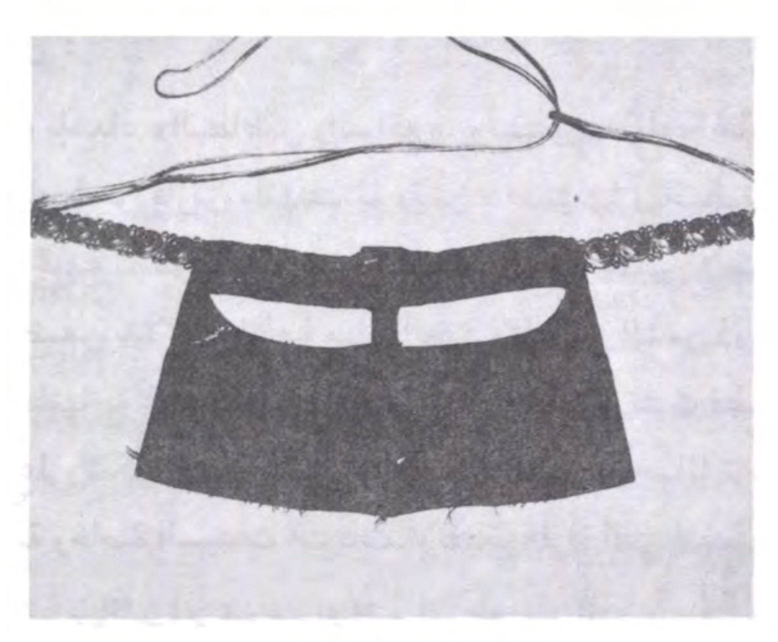
مالومة برقعچ يافلانه لي ظهر مالومه

تسعين مشخص حابچات نيومه

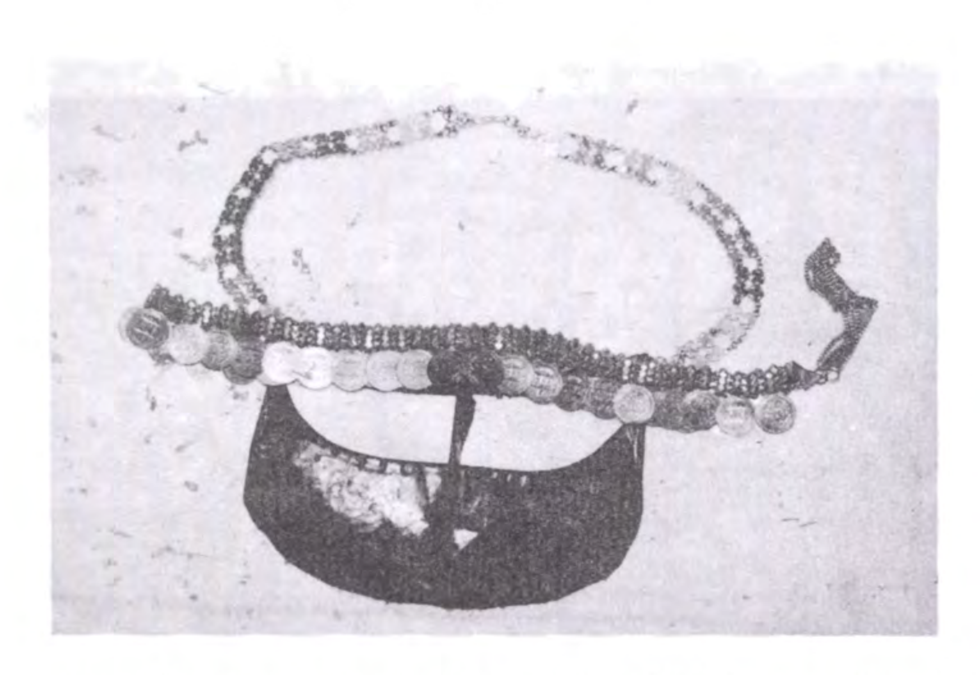
أي أن النجوم التي قد رصعت بها جبهة البرقع قد بلغ عددها ٩٠ نجمة محبوكة بطريقة باهرة.



سيدة تقوم بقص وفرص البطاطيل التي تلبسها النساء على وجوههن
المصدر : تصوير الباحثة

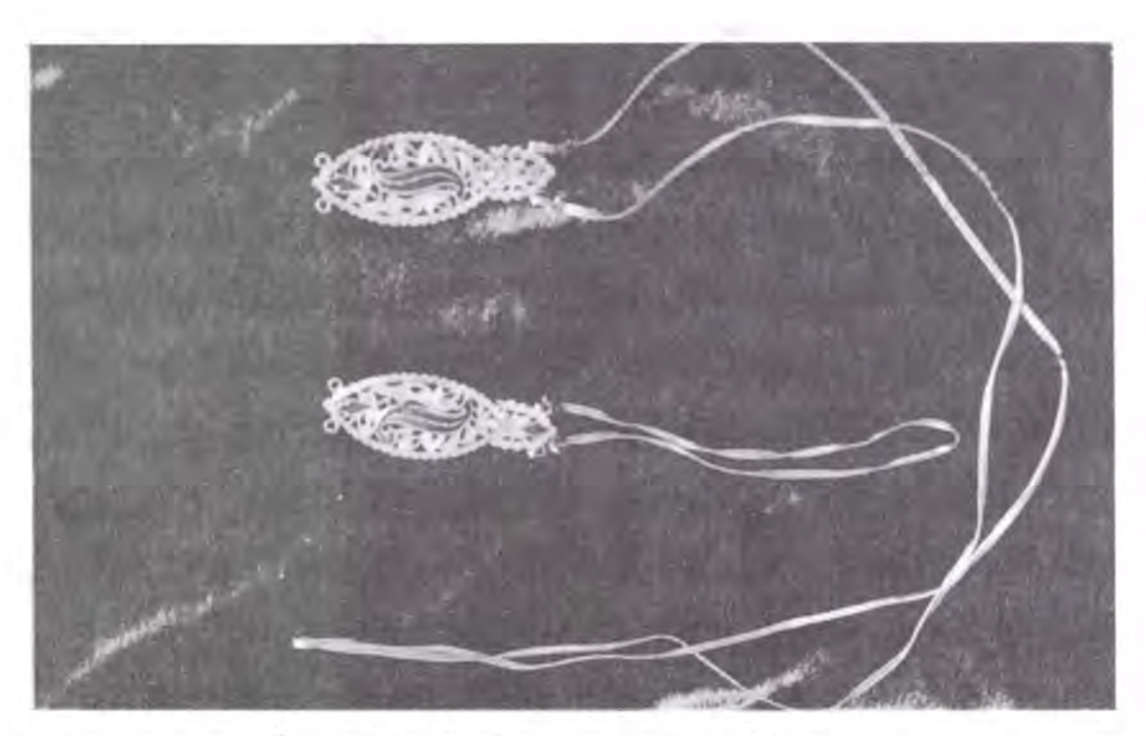


برقع مزين بسلاسل ذهبية
المصدر : تصوير الباحثة



برقع أو بطوله مزينة بالقطع الذهبية أو «النيرات» على الجبهة وبسلاسل أو حلقات من الذهب بدلا من الخيوط. وهذا البرقع تلبسه الموسرات ويسمى بالبرقع «الريسي»
المصدر : تصوير الباحثة

بالإضافة إلى البرقع تعد المرأة «الكلوع» التي هي أسس الحلي الذي تلبس به المرأة أسهل وتشبه أعينا بقطعة ذهبية منقوشة تسمى «الريشة» أو «الشبلحي» وبعض السيدات يقمن بتزيين الكلوع خاصة «التمي» وهي نوع خفيف جدا، بواسطة نقشه تسمى «النقلة» وهي عبارة عن قطعة معدنية دقيقة جدا فضية أو ذهبية تحرك بدقة على اللفع، وتسمى العملية «بالتنقل».



حلقات ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة تغلق في جانبي الجبهة وتشبك بالسيمي المستمدة من الزي
الحطل : تصوير الباحثة

وإذا كانت المرأة فقيرة أو ليس لها كالمرأة الغنية حلي فإنها تقوم بعمليات جديدة لتلك الألبسة عن طريق صبغها أو تلميعها بواسطة عدة طرق :

١ - صبغ النساء الألبسة بواسطة «الحناء» أو «النيلة». وهو صبغ أسود اللون يشبه الحلي يستورد في قناني زجاجية. فإذا لون الألبسة السوداء بالآلات مثل (الغفة واللفع) والألبسة السوداء تقوم النساء بنقع السلاميم في الماء ثلاثة أيام حتى يصبح لون الماء أسود ثم يخلط إليه قليل من صبغ النيلة ثم العفص ثم يغطس الألبسة فيه. وتنشر في الشمس مدة يوم واحد فقط.

٢ - ينقع «قرف الرمان» لمدة يوم مع «الهليليه» و«القرط» و«الأرطة». ثم يغلي على النار ويصفى الماء، ثم يغطس فيه الثوب الذي يراد تجديد لونه أو تغييره.

٣ - تغسل المرأة الدفة بالتمر المذوب في الماء (المريس) وخاصة الزري المطرز فيها ثم تنشرها في الليل وفي الصباح ترفعها.

كل تلك الاستعدادات تتم في الفترة التي تسبق موعد القفال. فتقوم الخياطات الماهرات باستدعاء معارفهن وقريباتهم من السيدات والجارات لكي يساعدنهن في انهاء الطلبات المتزايدة على الملابس. حيث تفصل لجميع الأعمار (الأطفال والنساء والرجال) فالقفال بمثابة «العيد». ونتيجة ضغط العمل تسهر السيدات على ضوء «السراية» من أجل إكمالها في الوقت المحدد، وتستمر جلسات الخياطة لفترات طويلة لذلك تقوم كل سيدة منهن بوضع عدة الخياطة (من إبر وخيوط وزري وبريسم والقبه والزني والمقص والأقمشة.. إلخ) في جفير تحمله معها إلى المقعد الذي تجتمع فيه السيدات (كما سبق وأن أشرنا) فتجلس كل سيدة وأمامها جفيرها وتبدأ جلسة الخياطة اليومية. فإذا غنت إحداهن تستمع إليها باقي السيدات فإذا انتهت ردت عليها أخرى بالغناء أيضا. وخاصة بإسلوب الغناء المسمى (بالفراقي) وأحيانا يغنين «الهلولو» أو أغاني «التهوية» وهي أغاني تؤدى من أجل تنويم الطفل أو تهدئته. وأحيانا يسردن الحكايات والحزاوي.. إلخ.

ثانيا : مواد الزينة :

تقوم النساء بإعداد مواد الزينة المختلفة والتي سوف يستخدمنها أثناء احتفالهن بالقفال.

وتبدأ الاستعدادات بطحن الحناء والياس والرشوش بواسطة الرحى، حيث لا يخلو منزل من أدوات الطحن والدق وأهمها «الرحى» و«المنحاز» و«الهاون». والرحى أحجام مختلفة. فيها الكبير ويستخدم لطحن الدقيق، والصغير يستخدم لطحن الحناء والياس. وهناك أدوات أخرى مثل «المنحاز» الذي يختلف عن الرحى ويستخدم في دق مكونات الرشوش، الذي كان يعتبر من أهم مواد الزينة التي كانت تستخدمها النساء. والرشوش عبارة عن خليط من مواد عطرية.

مكونات الرشوش :

١ - زعفران ٢ - محلب ٣ - ريحان يابس ٤ - ورد بلدي مجفف .

وبعد دق هذه المكونات في المنحاز تخلط بعد أن يصب عليها عطر المسك وتترك حتى تنشف ثم تطحن بالرحى ويكون الناتج مادة الرشوش الناعمة التي تدهن النساء بها رؤوسهن بعد مزجه بالماء ويضفرن الشعر به ويتميز برائحته الزكية والنفاذة جدا. وهناك نوعان من الرشوش. الرشوش الأبيض : وهو الذي ينقى من الورد الذي يستخدم جذوره الخضراء ويضاف له المسك. أما الرشوش الأحمر : فإنه يطحن مع جذوره وبعد الطحن يترك حتى يبرد ثم يعبأ في زجاجات.

وبالإضافة إلى دق الرشوش تدق النساء الحناء والياس والسدر الذي يشترينه وهو عبارة عن أوراق من عند «الدلالات» اللاتي يضعن الجفران المليئة بتلك المواد على رؤسهن ويتجولن بها في الفرجان وتكون الأيام التي تسبق القفال فترة ازدهار لتجارتهن. وتقوم النساء بنشر تلك المواد على أسفر كبيرة الحجم ويضعنها في الشمس حتى تجف ويسهل دقها في المناحيز. ثم تجتمع السيدات في جلسة محددة لطحن الحناء والياس والرشوش والغسل وتتميز تلك الجلسات بممارسة نوع معين من الغناء وهو «الفراقي» وهو غناء فردي كما سبق وأن أشرنا. وفي تلك الفترة تمازح النساء بعضهن البعض أثناء عمليات الدق تلك - استعدادا لعودة سفن الغوص - أو نتيجة الغيرة من بعضهن فتغنى إحداهن وهي تمازح زميلتها قائلة :

علي يادقـــاقت العطر هودي(١٠)

ثرى ريلچ(١١) ما يستاهل العطر شاربه

أي يامن تقومين بدق العطر اتركي ذلك فأن زوجك لا يستحق ان يعطر شاربه بهذا العطر الذي تتعبين نفسك بإعداده.

ومن ضمن مواد الزينة التي كانت تهتم بها النساء كان «المشموم» وهو «الريحان» والذى يجلبه «البقال» من منطقة «نعيجه»(١٢) على ظهور الحمير في «مراحل» ويمر في السكيك والفرجان وهو ينادي على بضاعته:

اقــعــد يا نايم عــســاك الدايم

مــشــمــوم الزين ، مــشــمــوم الزين

اقــعــد يا نايم عــســاك الدايم

فتخرج النساء لشراء «المشموم» وأحيانا يدفعن له نقود وأحيانا أخرى يضعن له تمر في «السرود» بدلا منه ويأخذن ما يردن من المشموم أو البقول الأخرى مثل البربير والرويد والبقل والحنزبان.. الخ. وقد ينادي قائلا :

مــشــمــوم الوردي

خــنــين الــريــحــة

قليل الفــضــيــحــة

يــراضــي الــزعــلان

يــقــيــم الــنــايم

ويكثر الباعة المتجولين في المراكز الحضرية الكبيرة نسبيا أما في المراكز الصغيرة وخاصة الشمالية ونظرا لقرب القطيف والبحرين من الساحل الشمالي الغربي فإن معظم احتياجاتهم تجلب من هناك فالجيلبوت تبحر في الصباح وتعود عند غروب الشمس في نفس اليوم. فكانوا يجلبون معهم المشموم الرازجي وباقي البقوليات على شكل صرر أو حزم.

بعد أن تشتري المرأة «المشموم» تشكه على شكل عقود كل ثلاث ورقات مع بعض. ثم تعطره بدهن الورد وتضعه في قنينة زجاجية وتصب عليها العطر ثم تغلقها جيدا. وتتركه حتى يحين موعد القفال. ويحفظ بتلك الطريقة حتى لا يذبل ويستمر لأطول فترة ممكنة. فقد لا تتمكن النسوة من توفير «المشموم» في الموعد المنشود ولذلك ابتكرن هذه الطريقة في حفظه حتى يحين موعد تعليقه في الضفائر.

ويقمن أيضا بشراء العطور التي كان أشهرها لديهم «دهن العود» و«الزعفران» و«دهن الورد» و«الرازاجي» و«المسك» وكلها مواد سائلة ثقيلة نسبيا وذات رائحة نفاذة. وفي هذا المجال أيضا يتم إعداد مادة العصفر لتستخدم عند ضفر الشعر وهي عبارة عن زعفران مطحون ومذاب في الماء أو العطر ويكون غليظ نسبيا .

عندما تصل الأخبار إلى الأهالي بأن الغواصين قد اقتربوا من البلاد أو الهيرات القريبة وأنهم سيقفلون خلال أيام معدودة. تقوم النساء بعجن الحناء، الذي يفسد إذا مرت عليه فترة وهو معجون. وفي بعض الأحيان تهب رياح قوية تعيق السفن في الوصول إلى البلاد فيبندرون في «الحالة» أو «الوكرة» أو أي مكان أخر فيلزون قرب السواحل. فتتندر النساء على بعضهن البعض. فتقول إحداهن للأخرى : عجنت الحنة يافلانه. قالت: نعم عجناه وشرينا المشموم من عند البقال. فتقول لها مازحة :

ما خبرو بن ثاني يوم البارح ضرب

الحنّة خمرنة والمشموم ا خترب

أي أن الحناء فسد والمشموم ذبل فالغواصين قد عطلتهم الرياح ولن يصلوا في موعدهم.

كذلك فإن الغاصة يتندرون أيضا حول الموضوع فينشدون نفس الأغنية السابقة ويضيفون عليها هذه الأبيات :

الله لا يحل الغربي دربحنا فوق أعلي(١٣)

دربحنا وتلاوينا ولا سوينا شي

في بعض الأحيان تتحنى النساء فعلا ويتأخر القفال حتى ينقشع لون الحناء من كفوفهن وأقدامهن. فينشدن :

حطينا الحنة وطار(١٤)

شكينا عند الجبار

ياهير يغوضونه

ما يلقون فيه محار

حيث تصاب النساء بالإحباط عند تأخر القفال فيشتكون إلى الله ويدعون على الغاصة بعدم التوفيق أثناء غوصهم في ذلك الهير الذي تسبب في تأخيرهم.

أو يقولون :

ما خبروني يوم البارح ضرب

الحنة خمـرنة والمشـمـوم اخـتـرب

وهذه الفتاة تلوم والدتها لعدم إخبارها أو تحذيرها من أن رياح (البارح) ستهب وتؤدي إلى تأخيـر البـحـارة عن الوصـول في مـوعـدهم مما سـيـؤثر على لون الحنة الذي خضـبت به يديهـا وقدميهـا وسيـصفر لونه الجميل نتيجة ذلك التأخير، وكذلك أوراق لمشموم (الريحان) فإنها ستذبل وتفسد :

يايمه مـا علمـتـيني يوم البـارح ضـرب

الحنة طار اصفاره(١٥) والمشـمـوم اختـرب

وانا فـي رجـا خلي وهو مني قـرب

لقد كانت استعدادات النسـاء قبل القفال أهم حدث تتندر به النسـاء والرجال والأطفال في تلك الفتـرة، واصبح ظاهرة ثقافية مصاحبة للاحتفالات المصاحبة لانتهاء موسم الغوص أي «القفال».

في تلك الفـتـرة أيضـا وخاصـة عندما يعلمن بوصول السفن إلى الحالة مثـلا. تبدأ النسـاء بضـفر شعرهن ويسـمون تلك العـمليـة «العجاف» أو «التـعجف» ونظرا لأن معظمهن يتـميـزن بالشـعـر الطويل هذا بالإضـافـة إلى أسلوب بالعـجاف أو طريقـة تسـريح الشـعـر، فـإن المرأة لا تستطيع أن تقوم بتعجيف شعرها بنفسها ولذلك تستعين «بالعجافة» والعـجافـة قد تكون اختها أو جارتها أو سيدة متخصصة في هذا المجال.

تبدأ عملية «التـعجف» بدهن الشعر بالسـمن (دهن البقر) المعطر بقطعة من العنبر لكي تصبح رائحته زكيـة. ثم يفرق الشعر إلى جهتين ويبدأ تقسيم الشعـر فيبدأ بتـضفيـر المنطقة السفلى ثم العليا من الجهة الخلفية أما على الجانبين فتضفر ضفيـرتان في كل جهة. ويسمون الضـفـائر «بسـايل». أمـا ذوات الشـعـر الخـشن فـأنهن يضـفـرن الشـعـر بالرشوش من جمـيـع الاتجاهات وتسمى التسريحة «حبوش» ثم يضعن المخمريه والعصفر في الفرق والجبهة.

هذا وتزدهر مهنة «العجافة في تلك الفترة. فكل عجافة تستـطيع أن تعجف لهـا في اليوم عشر أو أحد عشر سيدة. وتستـمر الضفـائر معجفة لمدة سبعة أيام لا تفكه أبدا. حتى ولو استحمت. وبعد مرور أسبوع تفكه وتسرحه مرة أخرى.



«العجافة» وهي تقوم بتعجيف شعر إحدى الفتيات إلى عدة ضفائر «تسمى الصفة» أي صفوف من الضفائر.
المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.



مجموعة من حلي اليد «البناجري» و«حب الهيل» ومجموعة من الخواتم «مرامي» التي كانت تتزين بها النساء والفتيات في المناسبات المختلفة في الخليج
المصدر : تصوير الباحثة

فإذا جاء موعد «القفال» استخدمت الرشوش مع العجاف وبعد أن تنتهي من تعجيفه تضع «العصفر» في فرق الشعر ثم تشخط به بأصابعها من الفرق حتى الجبهة فيصبح لون الوجه مشعا بلون العصفر الزاهي. بعد ذلك تخرج المشموم من «الغراش» إذا كان محفوظا أو من الصحن إذا كان طريا وتعلقه في الضفائر بأن تضع كل مجموعة من أوراق المشموم المشكوكة في فتحات «العجفة» أو الضفيرة وأحيانا تربطها بخيط وتعلقها بها. وإذا كانت سيدة غنية ولديها حلى ذهبية فإنها تعلق «الجتوب» و«القراميل» في الضفائر ثم تكحل عينيها بالكحل الاثمد، وتلبس البطولة الجديدة أو البرقع الريسي المزين بالنجوم أو الحلقات الذهبية. وتلبس أحسن ما لديها من ثياب (الثوب المركب أو المجرح والدراعة الجديدة المنقشة - مليه ومعصاه- والبشت المجتف.. الخ). هذا ويغنين على بعضهن عندما يكن في أبهى حللهن :

يابو خديد يشابه نجم الفجري (١٦)

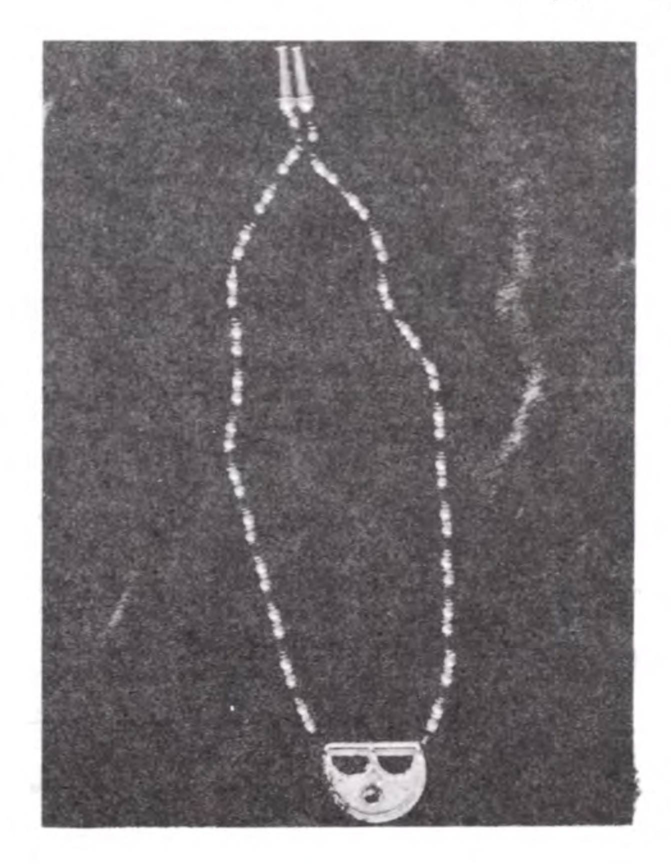
مثل القمر اللي تحدر من مغيبه



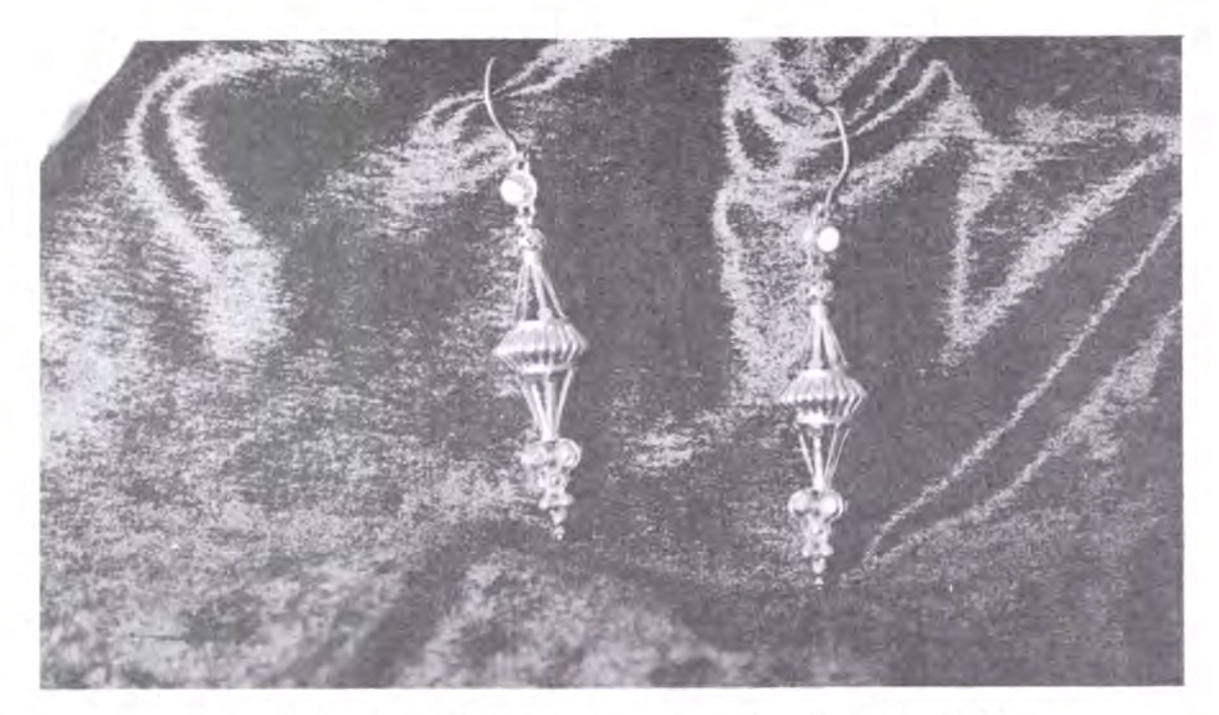
«الجتوب» أحد حلي الشعر وتعلقها السيدات في ضفائرهن.
المصدر : تصوير الباحثة



«مرتعشه» مطعمة بالأحجار الكريمة تلبسها المرأة علي صدرها
المصدر : تصوير الباحثة



احـد حلي الصـدر وتسـمى «المريه» من
الذهب والمرجان
المصدر : تصوير الباحثة



«الكواشي» من حلي الأذن. وهي من الذهب الخالص ومطعمة بالفيروز
المصدر : تصوير الباحثة

ومن الامورالجديرة بالذكر أن المرأة أثناء فترة غياب زوجها لا تتزين ولا تلبس ملابس جديدة أو جميلة ومطرزة أو حلي.. الخ. وحتى يوم القفال فإنها لا تتزين إلا في صباح اليوم التالي فلو دخل الزوج ووجدها في كامل زينتها أو أنها تلبس ملابس جميلة يغم كثيرا ويغضب ويشك بها خاصة إذا دخل فجأة ووجدها متزينة فهذا معناه أنها لم تكن مهتمة بمصيره وهو يجاهد ويشقى في البحر ولذلك فإنها تستقبله بثيابها المنزلية. وتكون متحنية ومعجفة شعرها فقط. وفي اليوم التالي تلبس كل ما تشتهيه وتتزين حسب ما شرحناه سابقا.

وفي بعض الأحيان تقفل سفن الغوص فجأة بدون أن يسبقهم خبر الوصول. وأحيانا يقفلون في الليل حسب اتجاه الرياح والمد والجزر. أو حتى أن الخبر يصلهم في نفس اليوم فترتبك النساء نتيجة ذلك حيث لم يتممن استعداداتهن، فالتي لم يجهز ثوبها تقترض ثوبا من جارتها، وتستعجل في طحن الحناء الذي لازال ورقا.. إلخ. فيغني الأطفال على الساحل بمناسبة عودة الأباء:

قفل القفال والحنة ورق

راحت تحتي والقرص احترق

أي أن القفال قد حان والحناء لازال ورقا لم تطحنه النساء. ومن شدة استعجالهن لعجن الحناء وتخضيب الكفوف نسين القرص (الخبز) على النار فاحترق.

وفي نفس تلك الفترة يزداد نشاط الأطفال ولهوهم فهم يقلدون الكبار بأداء طقوس القفال التي سنذكرها في الفصل القادم. ويغنون :

لي قلت له حاسبني

ياب الحبر والقرطاس

وقال ابشرو يايزاوي بالقطاعيني (١٧)

فالأطفال يغنون على لسان الغاصة والنواخذه أو الحوار الذي سيدور بين «اليزوة» و«النوخذا» بعد العودة «القفال» أثناء حساب أرباح الموسم. تعبيرا عن فرحتهم بالعودة الميمونة.

ثالثا : إعداد المنزل :

لاحظنا كيف أن النساء بعد رحيل أسطول الغوص يقمن بإخلاء الغرف من أثاثها وطوي السجاد والحصر.. إلخ. من أثاث المنزل وإبقاء أبسط الأشياء من أجل استخدامها تعبيرا عن زهدهن وحزنهن لفراق الأهل. وعند اقتراب موعد العودة «القفال» تبدأ النساء بإعادة ترتيب المنزل من جديد.

وقبل العودة بأسبوع تبدأ عمليات التنظيف في المنازل فتكنس الدور والحيشان كنسا جيدا وتصل عملية الكنس حتى إلى السكيك والساحات التي أمام المنازل، فكل سيدة تقوم بكنس منزلها تكنس المساحة التي أمام باب منزلها. وتنظف الرواشن والدرايش. والروشنة عبارة عن تجويف مربع أو مستطيل في جدار الغرفة ويكون مرتفع نسبيا. في حين أن الدريشة هي نافذة خشبية تتميز بأنها في مكان منخفض وذلك من أجل إدخال أكبر كمية من النسيم والهواء الذي يعتبر مهما جدا في البيئة الحارة.

بعد عملية الكنس تأتي عملية فرش «الصبان» الذي هو عبارة عن قواقع بحرية بيضاء اللون وصغيرة الحجم. يرغب بها السكان لكونها نظيفة وتمنع إثارة الغبار عند المشي فوقها أو عند هبوب الرياح وأيضا لنعومة الجلوس فوقها.

وكانت عمليات نقل «الصبان» ظاهرة فريدة من نوعها في المنطقة فرضتها الظواهر الطبيعية في البيئة الساحلية. حيث تتميز أيام المد (الحمل) بتكدس القواقع البحرية على السواحل الرملية بالذات وهي ظاهرة تتم في فصل الصيف حيث تزداد كميات «الصبان» نتيجة الحمل الزائد لمياه الخليج. فينتهز السكان الفرصة فيقومون بجمع تلك القواقع وفرش الغرف والحيشان والمجالس والدكيك بها. حيث تذهب النساء في شكل مجموعات إلى الساحل القريب منهم وإذا كان ساحلهم غير رملي يتجهن إلى أقرب ساحل رملي من مدينتهن.

لذلك نجد أن النساء في الدوحة يذهبن إلى «رأس بوعبود» الذي يتميز بساحله الرملي لجمع «الصبان» وذلك بواسطة وسيلتين: أما عن طريق البحر فيمسكن «القلص» أو «الهوري» بأيديهن ويخضن مياه البحر بمحاذاة الساحل حتى يصلن إلى «رأس بوعبود» فيجمعن الصبان في «القلص» وينتظرن وقت «المد» حتى يرتفع «القارب» بعد أن أصبح ثقيلا من «الصبان» ثم يبدأن بسحبه والعودة إلى الدوحة. أما الأسلوب الآخر فكان عن طريق البر حيث يأخذن الحمير معهن ويمشين بمحاذاة الساحل، فإذا وصلن إلى المكان ملئن «الخروي» المعلقة على الحمار ثم عدن بها إلى المدينة. ونفس الطريقة تطبق في مدينة الخور حيث يذهبن في مجموعات كبيرة مصطحبات أعداد كبيرة من الحمير إلى الساحل الجنوبي وأحيانا يذهبن مرتين (زفتين) في اليوم. ويتم فرش الدور والمجالس والدكيك منه. أما بالنسبة لمدينة الضعاين فإنها تتميز بكون ساحلها رملي أساسا فيقل الجهد الذي يبذلنه حيث يكون الصبان أمام البيوت يحملنه في «جفران» ويفرشنه في منازلهن.

بعد أن يفرش الصبيان يقمن بتوزيعه على المكان (الدار أو الدكة.. الخ) بأيديهن ويسوين سطحه. بعد ذلك يحملن المداد والحصر إلى ساحل البحر ويغسلنها جيدا هناك. ثم ينشرنها حتى تجف ويفرشنها في الغرف والمجالس. وإذا كانت لديهن بسط أو كنابل فإنهن يقمن بفرشها فوق المداد والحصر. بعد ذلك يعدن توزيع الأثاث مرة أخرى. فبعد أن يغسل الصندوق المبيت يتم وضعه في مكانه وتوضع السلال الضخمة المنقوشة فوقه والصحن الصين (الكاب)

الكبيـر موضـوع تحت الدولاب كنوع من الزينة. وتعلق «المناظر الملونة»[١٨]. وتصف الأواني الزجاجيـة (الغـراش) الملونة و«الكاسـات» المذهبة في الرواشن، التي يسـمونها آنذاك «شرق ورق» ويطلقون على تلك الأواني المذهبة أسم «السمان» وفي النهار تكون الغرفة مظلمة آنذاك نتيـجة انخفاض النوافذ ونتيـجة عدم وجود إضاءة كهربائية وحتى «السراية» ومثل هذا النوع من الإضاءة لا يستـخدم إلا في الليل. مع ذلك فحين يفتح باب الغرفة يحدث لمعان عجيب نتيـجة «المناظر الملونة» وأواني «الشرق ورق» ويصفن الغرفة المزينة بأنها مثل «الخلة» أي الغرفة التي يزف فيها العروسين، كما يغنين على الغرفة المزينة فيقلن:

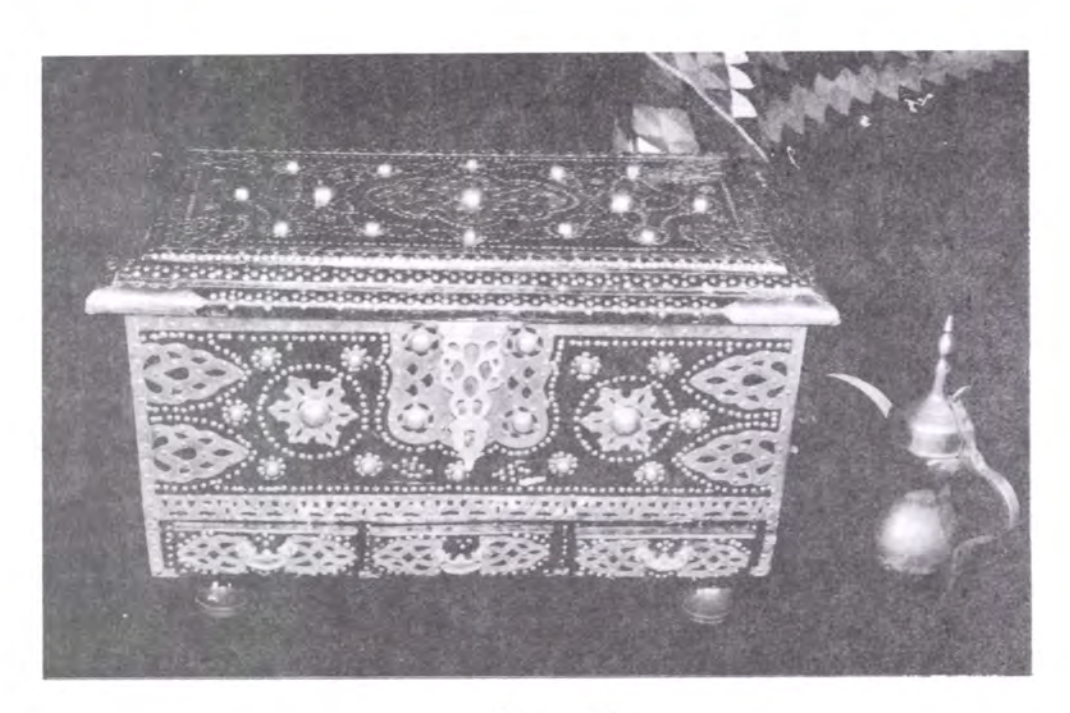
دارج يافـلانه دكـهـا الملح والنـور

من الزري كـاسـات وغـراش بنور

ثم تصف «المساند» وهى عبارة عن كيس محشـو بالقطن ومطرز بنقوش من الخارج. ثم تنظف «الفنارة» جيدا وتجهز بالفتايل. والتي لا يوجد لديها «فنر» تجهز «السراية» أو أي وسيلة إضاءة أخرى.

وفي داخل الغرفة يكون السرير (الكرفاية) الذي قد يكون من الخشب أو من الحديد الذي كان يجلب من بومبي ومن البصرة. وأحيانا تستخدم «القفاصة» وهي نوع من الاسرة يشبه مهد (منز) الطفل المستخدم قديما وهو عبارة عن أعواد خشبية مربوطة مع بعض على شكل سرير ومن فوقه أعمدة متشابكة. لكن السرير «القفص» لا توجد به الاعمدة المتشابكة من فوقه. وكان يجلب من «القطيف».

ثم تأخذ المرأة الفراش الذي يسمونه «الدوشك» واللحف التي يسمونها «الأبشره» إلى البحر وتغسلها هناك. ثم تضعه تحت ضوء الشمس (أي الدوشك) ثم تقوم بخبطه بواسطة عصى أو أي شيء آخر لكي ينفش القطن ويتساوى. وإذا لم يكن محتاجا للغسل تنشره هو و«الابشره» في الشمس. ثم بعد الغسل والنشر تقوم بتعطير الفراش بواسطة فرك «المشموم المعطر» فيـه وخلطه مع «المجـموعـة» التي هي عبـارة عن خليط من عطور متنوعة أو «المخمرية» التي تشبه السابقة ولكنها تكون أكثر كثافة وتخمر في آنية لفترات طويلة ثم يتم استخدامها. وبعد تعطير وتطييب الفراش يغطى بالبشار فيكون المشموم والعطر ما بين الفراش



الصندوق المبيت

المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية



مجموعة من الأواني الزجاجية الملونة التي كانت تفاخر النساء بامتلاكها ويسمونها «السمان» أو «شرق ورق»

المصدر : تصوير الباحثة

واللحاف ثم يطوى حتى لا تتبخر رائحته.

بعد ذلك تقوم المرأة بغسل الأواني الفخارية التي تحفظ فيها مياه الشرب مثل «اليحال» و«الحب» وتبخرها «بالمستكه الشاميه» ثم تملأ بالمياه. فتصبح رائحة الماء طيبة جدا.

أيضا من ضمن الاستعدادات قيام النساء بترقيد «تركيك» الدجاج على البيض قبل فترة حتى يكون لديها فراريج جاهزة للذبح عند احتفالها بعودة الأهل، وبعضهن يجمع البيض من اجل استخدامه في أكلة البلاليط. أيضا يقمن بطحن القمح على الرحى دقيقاً أو جريشا لإعداد أكلة الجريش أو خبز الخبر، ويقمن بطحن الأرز ثم قليه قليا خفيفا على النار (يشفشف) من أجل إعداد أكلة «الخبيص» التي يحبها السكان كثيرا. التي تصنع في الصباح وتتناول مع «الريوق» وهو «الفطور». ويكون تجهيزها في هذه الفترة لاستخدامها كأكلة رئيسية في «الفّاله» والتي هي من مظاهر الاحتفاء بالزوار، حيث تصف الأكلات الطازجة والحارة مثل (الخبيص والبلاليط اللقيمات... إلخ) في أواني وتقدم على «سفرة» إلى الزائر. ورغم أن الأباء والأزواج ليسوا زوارا أو ضيوفا إلا أنهم ولطول فترة غيابهم يعتبرون كذلك فيتم تقديم واجبات الضيافة إليهم. هذا بالإضافة إلى أنهن يعلمن أن الرجال قد حرموا من هذه الأكلات طوال فترة موسم الغوص حيث كانوا يمارسون أشق مهنة قد يعمل بها إنسان.

وبعد أن تنتهي النساء من استعداداتهن يجلسن على «الاسياف» ساحل البحر ينتظرن «السنيار» وهو قدوم السفن بشكل جماعي واحدة وراء الأخرى وهذا يسمي «سنيارا» يتبادلن الأحاديث وهن يغزلن الصوف وبعضهن ينفشه والبعض الآخر يبرمه. وكانت جلساتهن تتميز بالمقالب الضاحكة والفكاهة. والأطفال بقربهن يلعبون على الساحل. وفي كثير من الأحيان يمارسن الغناء خاصة في الليل وهن جالسات على ساحل البحر، يغنين على الغواويص المتعبين في الهيرات متمنيات لهم بالعودة السريعة.

الهوامش

(١) القبة : عبارة عن قطعة خشبية مستطيلة محفورة على شكل حلقات اسطوانية يسموها بيوت القبه، وفي نهايتها مقبض وتلف الخيوط في الاسطوانات كل لون في اسطوانة أو بيت. وهي أداة تسهل عملية سحب الخيوط للسيدة التي تخيط بدون أن تتشابك وتكون مجمعة كلها في مكان واحد.

(٢) خشو : اخفوا أو خبئوا.

(٣) روشن : أو الروشنه وهي عبارة عن فتحة في جدار الغرفة.

(٤) هفهافي : أي يدخل منه نسيم الهواء الرقيق.

(٥) النشر : كانت الفتيات يرقصن رقصة المراداه قبل العيد بسبعة أيام ويقال لتلك الأيام، أيام النشر، ويقولون عن الفتيات «انشروا البنات» وفي يوم القفال تنشر الفتيات على ساحل البحر احتفالا بعودة الأهل من الموسم .

(٦) جناين : كنائن أو كنات (زوجات الابناء).

(٧) يهالي : أطفال.

(٨) يقصرونه : تقصير الثوب إذا كان جديدا لأنه يكون كبير الحجم فتعدل مقاساته لتناسب صاحبته.

(٩) نيومه : نجومه الذهبيه .

(١٠) هودي : تخلي أو اتركي. وقد ذكر في القاموس المحيط ان هاده الشيء: زجره. وهيد وهاد: زجر للإبل. والتهواد: الإبطاء في السير. انظر ص (٤٢٠).

(١١) ريلچ : زوجك.

(١٢) نعيبه : منطقة عيون مياه وبها مزارع. قريبة من الدوحة وتقع إلى الجنوب منها.

(١٣) أعليّ : اسم بندر تستخدمه سفن الغوص حين تهب الرياح الغربية.

(١٤) طار : ذهب لونه الاحمر الجميل.

(١٥) اصفاره : لونه.

(١٦) تقتبس النساء دائما الأبيات الشعرية ويستخدمنها في حياتهن اليومية بطريقة عفوية.

(١٧) القطاعين: هي المبالغ التي يدفعها النوخذا لطاقم السفينة بعد خصم تكاليف الرحلة من الأرباح وتوزع الأسهم حسب نوع المهنة بالنسبة للبحارة بالإضافة إلى سهم السفينة وسهم النوخذا.

(١٨) المناظر : المنظرة هي المرآه. والتي نعنيها هنا كانت عبارة عن أشكال مستطيلة من المرايات ومزخرفة بزخارف ملونة ذات لمعان وبريق قوي.

الفصل الرابع

طقــوس وممــارسات شعبيــة

تطلق كلمة «القفال» على موعد نهاية موسم الغوص ومعناها العودة. فالقفال[١] من قفل من السفر، ورجع، وأقفل الجيش: أي رجع. وكانوا يطلقون على العائدين من هيرات اللؤلؤ في ذلك الموعد المحدد كلمة «المقافيل» أو «المجافيل» حيث تنطق القاف في اللهجة المحلية جيما وأحيانا گ فيقال «المگافيل» أو الگفال. ولا تطلق كلمة «قفال» على أي سفينة عائدة من رحلة الغوص وإنما هناك شروط محددة للقفال هي :

١ - أن تكون عودة السفن جماعية وبأمر من أمير الأسطول المعين من قبل شيخ البلاد.

٢ - أن يكون في موعد زمني معين. وهو في الأيام الأولى من شهر اكتوبر عندما يصبح الطقس متقلبا والمياه باردة فيشق الغوص على البحارة. فيقرر أمير الأسطول العودة، ويعطي إشارته بذلك.

فإذا عادت السفن في أي أيام أخرى وبدون الشروط السابقة فإنها لا تكون قفالا ولكن يطلقون عليها كلمة أخرى وهي «الدخلة» أو «دخلوا» أو دخل فلان. أي دخلوا إلى البلاد. خاصة في الفترات التي يتم فيها التزود بالمؤن والراحة. وهذه كلمة يطلقها أهل البلاد على السفن التي تدخل إلى الميناء «الفرضة». أما إذا اتجهت السفينة إلى أي بندر أو ساحل أو أحد الجزر نتيجة ظروف مناخية غير ملائمة أو نتيجة لعطل في السفينة، أو حتى العودة للبلاد من أجل إعادة مريض أو لإصلاح السفينة أو لأي أمر طارىء، فيقولون عن هذا «يداف» أو يدفوا» أي جدفوا حيث تقلب الجيم إلى ياء في اللهجة المحلية خاصة لهجة سكان الحواضر. أما أهل البادية فإنهم يصرون على استخدام الجيم ولا يستسيغون لهجة أهل الحضر إذ يرون أنها «لينة» أو «سائحة».

ومعظم حركة سفن الغوص وأزمنتها تحكمها الرياح ومواسمها كما سبق وأن أوضحنا. فبعد أن تمر ثلاثة شهور الصيف الحارة والتي تسمى «القيظ» يبرد الزمان وتهب نسايم سهيل ويتساوى الليل بالنهار فيتوقع الأهالي عودة «الغواصين» فيقولون :

غابت نيوم[٢] الصفاري[٣] والخرافي ظهر
والقيظ حده ثلاثة بالحساب وظهر

وهذه الأبيات تدل على مدى أهمية النجوم والفلك في حساب الأزمنة وتحديد الأنشطة الاقتصادية وما يرافقها من مناسبات اجتماعية في حياة السكان آنذاك. فبعد انقضاء الأربعة شهور من موسم الغوص الرئيسي تبقى عشرة أيام يتوقع خلالها السكان وصول «المقافيل».

ولكن النساء لا يطقن الانتظار خاصة في الأيام الأخيرة ويستعجلن عودة «الغواصين» فلا يجدن بدا من القيام بممارسات وطقوس يرين أو يعتقدن إعتقادا راسخا بأنها ستساهم في التعجيل بعودة الغواصين.

فبعد أن تمر فترة الضيق والتبرم من طول موسم الغوص وخاصة في الفترة الزمنية التي تسبق القفال من الموسم حيث لا «تدخل» السفن مرة أخرى إلى البلاد إلا وهي «مقفلة» ولذلك فإن أطول فترة تبقى فيها سفن الغوص في الهيرات هي الفترة التي تسبق القفال. ولذلك نجد النساء يعبرن عن ضيقهن بالأغاني والأشعار فينشدن :

يسقى(٤) علي عيني لي قفل الغواص

وطوى حبال الغوص وعلق ديايينه

وفارقت مبروك وفارقت شوق الماس(٥)

وفارقت اللي هرجته(٦) ما يشمنها

في هذه الأغنية تتمنى النساء رؤية «الغواص» وهو «مقفل» من الغوص وأن ذلك غاية مناهن وأمتع وأجمل منظر تراه أعينهن. خاصة عندما يقوم بطوي حبال الغوص ويعلق «الدين» معلنا بذلك عن توقف رحلات الغوص واستقراره وسط أهله. فهو قد فارق رؤية اللؤلؤ وما يرافق ذلك من مشاق. وهو في نفس الوقت قد فارق من كان يؤذيه بكلامه وقد يكون المقصود هنا هو «النوخذا» بأوامره وتسلطه على البحارة.

وهناك أناشيد أخرى تنم عن تبرم النساء من طول الموسم وغياب البحارة، كالأغنية السابقة التي ذكرناها، وكانت تؤدى أثناء الطحن على الرحى :

ياذا الشهر باطويك طي لقريطيس

شهرين والثالث ايبون الغواويص

كما تتغنى النساء وهن جالسات عل شاطئ البحر بالغواويص الشجعان وينتقدن مهنة «السوابه» والعاملين بها فينشدن:

السيب شروا الحمار الابتر[7]

من الخريج[8] ياب بودين[9]

شروا[10] العجل لي قام بجتر[11]

يعله يفدي داعچ العين

الغيص وينك يابو ثمانين

يروّه وراونّي دينه

ان مات بيغمض المحبين

وان حيا بيوفي دينه

هذه الأشعار تؤكد حقيقة إنخفاض مكانة «السيب» عند النساء في تلك الفترة وارتفاع مكانة «الغواص» مما يوحي بوجود تقسيم اجتماعي على حسب نوع المهنة. وتدني أهمية عامل آخر مهم هو المكانة القبلية فلم تكن هي المعيار الوحيد آنذاك في تحديد المكانة الاجتماعية للشخص.

لكن الموضوع المهم هنا هو أنه بعد مرور فترة من الضيق والتبرم نتيجة تأخر البحارة تبدأ النساء في التفكير في وسائل عملية من وجة نظرهن قد تساعد في التعجيل بالعودة المنتظرة فيتفقن على إجراء طقوس «توب توب يابحر» في الليل أو في النهار «فترة الضحى» وأن كان الشائع هو اجراءها بالليل لعدة عوامل أهمها : -

١ - برودة الطقس ليلا نسبيا عن فترة النهار.

٢ - توفير جو يناسب عملية كي البحر التي سنذكرها.

٣ - في الليل تجتمع النساء من أجل «العتمة» أي التسامر ليلا بعد أن ينتهين نم أعمالهن المنزلية. وكان التجمع عاملا مشجعا على اتخاذ القرار بالقيام بالطقوس ويوفر جمهورا يشارك سواء في الممارسة أو بالغناء أو بالمشاهدة فقط .

٤ - كون الظلام ساترا للنساء المحجبات ويتيح لهن حرية الحركة في البحر، فبعد صلاة العشاء تجلس النساء يعتمن والأطفال يلعبون في البرايح فتقرر إحداهن بعد أن يكثر الحديث بينهن عن تأخر «المجافيل» فتقول : ياالله خلنا نسوي لهم «توب توب يابحر» فيوافق الجميع ويبدأن بالتشاور في كيفية أداء الطقوس فتوجههن السيدات كبيرات السن فيقلن للشابات افعلن كذا وقلن كذا وبعد ذلك يتوجهن إلى شاطئ البحر تقودهن سيدة معروفة بالجرأة وإجادة الغناء. وهنا تبرز المولدات والمغنيات كأفضل الحاضرات لمثل هذه المهمة.

ويبدأن بممارسة طقوس متنوعة منها تغطيس قطة في البحر وإشعال جريدة أو «كنبوره» وكي البحر بها، وقذف البحر بحصاة مقبره أو حفنة من ترابها، وهناك طقوس أخرى أقل شهرة وأقل تطبيقا مثل تغطيس عجوز بدلا من القطة أو تلطيخ منزل امرأة سيئة السمعة فتلغّي أي تغضب وترفع صوتها بالشتائم، أو أن تحلب إحداهن من صدرها على حصاة المقبرة قبل رميها في البحر أو الغناء على نار مشتعلة وسط «قرف» سلحفاة وسحبه في مياه البحر.. الخ. وكل تلك الطقوس إنما تتم من أجل أن يتغير الطقس وتهب الرياح ويهيج البحر هيجانا شديدا فتضطر سفن الغوص إلى إنهاء الموسم والعودة السريعة إلى البر. وسنتناول بالشرح ذلك المعتقد الشعبي والطقوس المرافقة له.

وبما أن الهدف الذي كانت تسعى النساء إليه هو إجراء طقوس تؤدي إلى هيجان البحر عن طريق إغضاب الجان والعفاريت التي تسكنه عندما يكوى أو يقذف بحصى المقبرة أو تغطيس قطة في مياهه.. إلخ، وعندما تهيج العفاريت والجان يهيج البحر وتهب الرياح والعواصف الشديدة التي ستؤدي بدورها إلى إنهاء موسم الغوص، لذلك كان شاطئ البحر المكان الأساسي لإجراء تلك الطقوس. فإذا اقترب موعد القفال وكان الهواء ساكنا (خواهر) تقرر النساء القيام بطقوس (توب توب) حتى يتغير الطقس وتهب الرياح التي لا تسمح للغواصين بأداء عملهم ويقررون العودة. وتتنوع تلك الطقوس - حسب ما ذكرناه سابقا - ولكن هناك ثلاثة طقوس رئيسية اشتهرت في المنطقة وكانت النسوة يمارسنها باستمرار قبل موعد القفال في موسم الغوص الرئيسي، وتدخل ضمن الاحتفالات الجماعية المرتبطة بنشاط الغوص في المجتمع. وتتمثل تلك الطقوس في الأساليب التالية :

أولا : عملية تغطيس القطة :

تبحث النسـاء والأطفال عن قطة وبعد الأمساك بها تبدأ عمليات إعدادها أو تجهيزها قبل ممارسة طقوس «توب توب يابحر» .

تخرم أذن القطة وتوضع فيها حلق «شغاب أو خراريات» من الخرز الزني وهو أصفر اللون ويسمى «ذهب الفقير» وتشك عقود طويلة منه تلف حول رقبة القطة على شكل قلائد، وتكحل عيناها ويمد الكحل الاسود حتى يصل إلى اذنها، ويعطرونها بالعطور في وجهها، ويقمن برسم خطوط على ظهرها بالحنة أو تلوين ظهرها ببقع من الحنة، حتى لا تكون لون واحد أي تصبح مبقعة أو قريبة من اللون الأبيض حسب اعتقادهم. ولا يوجد لديهم تفسيراً لعملية تبقيع القطة أو عمل الخطوط على ظهوها بالحنة.

وبعد ذلك تحمل النسوة القطة إلى البحر فيبدأن بالردح (وهو نوع من الرقص بواسطة ضرب الأرض بالقدمين) في البطح (وهو المكان الذي جزرت عنه المياه أو ثبرت عنه حسب التعبير المحلي) وبعد الغناء فترة يبدأن بالدخول إلى المياه وحين يصل الماء إلى وسطهن يبدأن بعملية «توبونه» القطة أو يتوبنونها. أي تغطيسها في مياه البحر عدة مرات وهم يغنون ويصفقون بأيديهن. وتتم عملية التغطيس أما بصورة فردية أو جماعية. حيث تربط القطة على قطعة خشبية وتقوم إحدى السيدات الجريئات بقيادة تنفيذ عملية التغطيس وتوجيه باقي المجموعة. وأحيانا تمسك القطة باليدين وتتقاذفها النسوة أثناء عملية التغطيس، أو توضع في رداء وتغطس وهي في الرداء مع الغناء والتصفيق.

تغطس القطة في الماء فتفزع وتبدأ بالصراخ فتسألها «الرئيسة» : بسوس ياماو؟ ياو الغواويص والا ماياو! وتغطسها مرة أخرى. فتصرخ القطة ماو... ماو فتفرح السيدة وتقول «ياو»!، «ياو»! أو إذا صرخت القطة : ويص.... ويص. قالوا: كا ياو الغواوص. فهم يعتقدون أن القطة عندما تغطس في مياه البحر فإنها ستخبرهم إذا ما كان الغواويص في طريقهم إلى البلاد أم لا. فإذا لم تصرخ القطة بالصورة المطلوبة فإنهن يشددن أذنها إلى الخلف ويغطسنها فتموء بشدة هلعا وفزعا فتصرخ النساء فرحات : ياو... ياو. فيصفقن مغنيات بصوت شجي وجماعي أو متبادل بين مؤديه ورداده (كورس) :

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

هات الغـاصـة والسـيـوب

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

جـيـبـهم يالله تجـيـبـهم

جـيـبهم خاطفين بجـيـبـهم

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

شـــهـــرين والثـــالث دخل

شـــهـــرين والثـــالث دخل

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

مـا تخـاف من الله يابحـر

شـــهـــرين والثـــالث دخل

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

وقد تكون الأغنية أكثر تحديدا فتقوم النساء بتحذير الغاصة والسيوب من مغبة العمل في البحر الغير مأمون العواقب، فكثيرا ما ذهب الغاصة ضحية له. انظر الأغنية التالية :

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

يات الغـاصـة والسـيـوب

يات الغـاصـة والسـيـوب

ياحبيبي توب عن البحر توب

البحر غطس غاصة وجنن سيوب

فهن يطلبن من أحبائهن التوبة من العمل في البحر أي عدم الاشتراك في رحلات الغوص، فالبحر كثيرا ما قضى على الغاصة غرقا وأصاب السيوب بالجنون، ويقصدن بذلك «الضرّ» الذي يصيب البحارة نتيجة لبس الجان لهم - كما سبق وان اشرنا في الفصل السابق - وهو أحد المعتقدات السائدة في المجتمع. بعد ذلك يطلبن من الرياح الغربية أن تهب لكي يثور البحر وتتعالى امواجه فيرجع الغاصة والسيوب.

يـالـلـه يـاغـــــــــربـي دور

وخظ البحـر ورد الغـاصة والسـيـوب

وتظهر معاناة النساء وخوفهن على أزواجهن وأقربائهن من اخطار البحر. لذلك فهن مرة يؤدبنه ومرة يرجونه ثم يطلبن العون من الظواهر الطبيعية الأخرى لكي تتحقق عودة البحارة من البحر.

وتغطس القطة ثلاث مرات وبعد أن يصيبها التعب تطلقها النساء فتجري هاربة مصدرة خشخشة نتيجة العقود المعلقة في رقبتها. حيث يكون قد انتهى دور القطة في الطقوس المتبعة حيث يمثل تغطيسها جزءا من عملية متنوعة ومتعددة في إهاجة مياه البحر وإثارة الرياح. فالقطة يتمثل دوها في ناحيتين :

١ - صراخها الذي يعني إخبار بقرب موعد عودة البحارة.

٢ - أن تغطيسها في البحر يغضبه فتهب الرياح الشمالية الشديدة فيعود البحارة.

وكان كل حي (أو فريج) يقوم سكانه بتنفيذ الطقوس بمفردهم. ولذلك كانت الأغاني التي تؤديها النسوة أثناء تلك الممارسات مختلفة فكل مجموعة تغني على أهلها وسفنها وتطلب من البحر أن يرد تلك السفن ويسمينها بأسمائها فيقلن مثلا :

يابحـــرنا يا ليـــديد[١٤] هات لنا مـحـمـد بن شـبـيب

يابحـــرنا ياليــــد[١٥] هات لنا مــحـــمـــد السيـــد

يابحــــــرنـا يـالـوايـد[١٦] هـات لـنـا بـدر بـن مـــــايـد

يا بحـــــرنا ياليـــديد هات ســـعـــيـــد بن بديد

يا بحــــرنا يا ليـــديد هات خـــشب بن عـــتـــيج

يـابـحــــــونـا يـالـوايـد هـات خـــــــــشب المايـد

يابحــــرنا يا لمنجــــوس ييـب شـــــوعي بنبكوس

يـا بحــــــرنـا يا النودان هات خـــشـبـيـات الســـودان

وهذه كلها تمجيد في البحر مع ذكر اسماء مالكي السفن أو نواخذتها والتي تتبع عائلاتهن أو قبائلن. كما يشرن إلى البحر بتعبيرات مختلفة وتتضمن نظرة تبجيل وإسقاط نوع من التقدير والاعتزاز مع الرهبة عليه، وذلك نتيجة العلاقة المباشرة والثابتة بينهم وبين البحر كمصدر رزق للمجتمع، ككل، فهن يكلمنه وكأنه يستطيع أن يسمعهن أو كأنه شخص حي، فهن بغنائهن له يستعطفنه مرة «ما تخاف من الله يابحر» ومرات أخرى يمتدحنه ويمجدنه لعله يلين فيرد لكل أسرة عائلها. وعندما لا يجدن كلمات مناسبة لأسم العائلة فلا مانع من الاستعانة بكلمات أخرى مثل :

يـــالـــقـــلـــة هـــاتـــي مـــحـــمـــد بن عـــبـــد الله

ياعــــيــــشنا يالبلم هـات خـــــــشـب المسلم

ياعــــيـــشنا يالشـــلاني هات خـــشب المسلمـــــاني

تـــوب تـــوب يابحـــــر

تـــوب تـــوب

وتتخذ اقامة تلك الطقوس طابعا مرحا وفكاهيا يلطف من الجو العام المشوب بالقلق نتيجة الخوف على الأهل بالإضافة إلى أن التأخير يساهم في زيادة الأحوال المعيشية سوءاً، فالمؤن التي زود البحار عائلته بها قد انتهت أو هي على وشك أن تنتهي ولا يوجد لدى المرأة مصدر آخر سوى الاستدانة ولذلك فهن يلجأن إلى تلك الطقوس الغريبة بتأثير من عاملين أحدهما نفسي ووجداني والأخر اقتصادي محض هذا عدا عن العامل الاجتماعي والثقافي الذي يتمثل في التمسك بما هو موروث وأصبح عادة شعبية اجتماعية تقام في مناسباتها المحددة.

ويظهر تأثير الاحتفالات الجماعية في توفير جو الترفيه الذي يحتاجه أفراد المجتمع فمثلا نجد أن النساء كن يتمازحن ببعض الكلمات الطريفة أثناء تأدية تلك الطقوس فينشدن مثلا :

توب توب يابحر

توب توب

شهرين والثالث دخل

ما تخاف من الله يابحر

يالهيب هات الحبيب

يالبادية هاتي جمود[١٦] آفاديه[١٧]

يالرحى هاتي اللي يقيل من ضحى

يببهم يببهم خاطفين بجيبهم

سانين هيبهم حافرين جليبهم

لقد كانت تلك الكلمات الطريفة المستخدمة في أغاني طقوس «توب توب» تمثل أحد الوظائف الوجدانية والترفيهية التي تؤديها تلك الطقوس. حيث يسمح جو المرح العام بالتعبير بكلمات قد لا يسمح بقولها في ظروف عادية أخرى.

كذلك فإنها تشير إلى مستوى أدنى من التعبير يظهر عند بعض الفئات الممارسة للطقوس. حيث تشارك بأداء تلك الطقوس معظم مستويات المجتمع الثقافية والاجتماعية والعمرية أيضا. من المستوى الأدنى إلى الأعلى. وان كانت سيدات الفئة الاخيرة لا تتعدى مشاركتهن حدود المشاهدة. وإن كن يؤيدن ما يجري أمامهن من طقوس ويشجعن عليها. وهذا يؤكد وجود نوع من الثقافة الشعبية العامة التي تصبغ الوجدان الشعبي وتتجذر في أعماقه وتبرز في مناسباته الاجتماعية المختلفة. وان اختلفت مستويات التعبير حسب نوع المناسبة التي يعايشها. وحسب الفئات الاجتماعية المشاركة فيها. وكما أن للأغنية هنا دور في التعبير عن مشاعر وآراء الجماعة إلا أنها لا تخلو من تعبيرات فردية أيضا. وان اتخذت الشكل الجماعي في الأداء مما يعني موافقة الجماعة على تأديتها وان كانت تحددها بظروف وشروط معينة نابعة من المناسبة نفسها التي يحتفل بها المجتمع ولا تتعداه. مثال ذلك السماح للسيدات والفتيات بكشف شعرهن أثناء تأدية رقصة «المراداه» في الاحتفال بالعيد فقط. ولا يكون ذلك محل انتقاد من الجماعة بل أنه أحد شروط أداء تلك الرقصة والتي تكون الزينة فيها إحدى أهم مظاهر الاحتفال بالعيد.

ثانيا : كي البحر :

من طقوس «توب توب» القيام بكي البحر بالنار بواسطة سعف النخيل المشتعل أو بواسطة «كنبوره». والكنبورة هي عبارة عن قطع من القماش والملابس القديمة أو «الخيش» تربط في طرف قطعة خشبية حتى تصبح لفة كبيرة ويتم إشعال النار فيها وتحمل إلى البحر.

تجهز الكنابير باكرا وبعد صلاة العشاء تمسك إحداهن «بالكنبورة» أو «السعفة» المشتعلة وتجري بها على طول الشاطئ جيئة وذهابا والباقين يجرون خلفها (النساء والفتيات والأطفال) وبعضهن يمسك أيضا بجريد أو سعف نخيل مشتعلة و«يحوربون» أي يلوحون بها. ورئيسة المجموعة التي بيدها «الكنبوره» أو «السعفة» أو «الجريدة» تغني وهم يرددون وراءها. فتنشد :

سعور نعور لا خليت دقل ولا دستور

سعور نعور لا خليت دقل ولا دستور

وتركض على الشاطئ والباقين يرددون وراءها الكلمات السابقة ، والتي تطلب فيها أن تهب الرياح المسعورة التي لا تترك دقل سفينة أو دستورها في البحر. أي أنها تدفع السفن إلى العودة السريعة. وان كان المعنى يحتمل أنها تطلب من الرياح أن تدمر وتكسر السفن أو لا تترك دقل أو دستور إلا وحطمته. ومع ذلك نحن لا نرجح هذا المعنى لأن معناه غرق السفينة في عرض البحر ولا يعقل أن ترغب النساء في غرق الاهل والغواصين. ولذلك نرجح المعنى الاول: أي أن تهب الرياح فتدفع جميع السفن إلى العودة ولا تترك أي سفينة متخلفة (لاخليت دقل ولا دستور).

وكان كل فريج يؤدي نفس الطقوس تقريبا لذلك كان الشاطئ يتلألأ من بعيد نتيجة الشعل بالكنابير أو السعف والركض بها عل طول الشاطئ. هذا بالإضافة إلى «الصبوه» التي يتم تجهيزها منذ العصر حيث يكلف الأطفال بتجميع ما تسقط عليه أيديهم من أخشاب وألواح وأقمشة و«چن»... إلخ. على شاطئ البحر في شكل كومة كبيرة يسمونها «صبوه» وفي الليل يتم إشتعالها. وتقوم النساء بشكحها وحمل «الخصف أو السعف» بأيديهن. وينشدن :

توب توب يابحـــــر

توب توب

هات الغاصة والسيوب

يبيبهم يالله تيبيبهم

خاطفين بجيبهم

ما تخاف من الله يابحر

شهرين والثالث دخل

ثم يبدأون بالدعاء على الغاصة فيقولون :

وكل هير يغوصونه

ما يلقون فيه محار

وتوب توب يابحـــــر

يبب الغواويص من بحر

أي بأن لا يجدوا أي محار في كل هير يغوصون فيه وسبب دعاؤهن أنهن قد أكملن استعداداتهن للقفال وقمن بنقش كفوفهن بالحناء وقد اضمحل أو اصفر لونه الجميل من ايديهن والبحارة لم يقفلوا فينشدن :

حطينا الحنا وبار[18]

وشكينا عند الجبار

وكل هير يغوصونه

ما يلقون فيه محار

ويستمر الدعاء للبحر بالهيجان ولغوص البحارة بالفشل فيخاطبن البحر قائلات:

زنبره خظ[19] البحر وانبره

خرط ومه اجعل غوصهم خرط ومه

يطلبن من البحر أن تهيج أمواجه ولا يستقر للبحارة غوص أو سفينة. وأن لا يجدوا في المحار سوى الخرط والماء ويصبح غوصهم فاشلا. وهذا الدعاء يشير إلى قسوة الانتظار لفترات طويلة تعاني منها النساء مشاق الحياة اليومية في بيئة فقيرة بالموارد الطبيعية وحتى من الموارد الحيوية كالماء. وعند اقتراب موعد القفال فإن الغوص تقل أهميته بالنسبة لهن مقابل الفرحة بعودة الغواصين فلا تمثل الأرباح لهن أهمية تذكر. وهذه نظرة عاطفية وأن كانت لا تخلو من بعض الدلائل المنطقية والتي قد يبرز من ضمنها أن الأرباح مهما كثرت فإنها لا تتعدى مبالغ معينة ومحدودة في أغلب الأحوال ولا تسد حتى الدين الذي يربط الغواص بالنوخذا أو الطواش. فنجاح الموسم لا يغير إلا حظوظ بعض الأفراد وتصب معظم الأرباح في خزانة الطواش الكبير الذي يشتري اللؤلؤ ويبيعه على التجار الهنود أما أرباح السفينة فإنها تقسم على الطاقم بعد أن يخصم منها نصيب السفينة والمواد التموينية وخلافه. ولذلك ونتيجة ركود الأوضاع الاقتصادية بالنسبة لقطاع البحارة والعمال فإن الغوص لا يمثل في نهايته (موعد إنتهاء الموسم) عاملا اقتصاديا ايجابيا مثلما كان يمثله في بدايته عندما يقبض الغواص «السلف» ويمون أسرته فنصيبه في نهاية الرحلة إنما يذهب معظمه إلى سداد مبلغ السلف وما بقي منه فهو قليل وأحيانا أخرى لا يبقى منه شيء وإنما يعيش البحارة وأسرهم

على مبلغ «التسقام» حتى الموسم القادم. ذلك المبلغ الضئيل والذي يكون في أحيان كثيرة عبارة عن مواد تموينية (أرز وتمر). ويعاني البحارة معظم أيام السنة من فقدان للسيولة النقدية ويعيشون على هامش الحياة الاقتصادية يبيعون قوة عملهم مقابل سد قوتهم وقوت أسرهم.

مما سبق نجد أن النساء يدعين على البحارة بأن يفشلوا في غوصهم ومع هذا فيجب أن لا يغيب الهدف الأساسي عن بالنا والذي يدفع النساء إلى إجراء تلك الطقوس وهو ما سبق ذكره «من أجل ان يقفل الغواصين من موسم الغوص ويعودوا إلى البلاد».

هذا ويتبين مما سبق أيضا الاعتقاد السائد لديهن بقدرة البحر على سماع كلامهن وإطاعة أوامرهن بواسطة تلك الطقوس. فالبحر رغم خوفهم ورهبتهن منه فهو قريب اليهن يبجلنه ويحترمنه فرزقهم منه. وذلك رغم المشاق التي يواجهها الرجال فيه. فيستعطفنه أحيانا ويهددنه أحيانا أخرى «ما تخاف من الله يابحر» و«توب توب يابحر» فهن يأمرنه بأن يتوب ويرد أبناؤهن فيختلط الحب بالكره والتبجيل والرهبة بالتأديب واللوم. هذا عدى عن كون سكان الحضر هم من بيئة ساحلية وللبحر دور أساسي في حياتهم اليومية -كما رأينا- مما يؤثر على اتجاهاتهم الوجدانية والثقافية نحو الارتباط به، في حين نجد أن هذا الارتباط مثلا معدوم لدى البدو الذين يأتون للعمل في موسم الغوص ويكرهون البحر ويتمنون العودة إلى البر بأسرع ما يمكن -كما سنرى فيما بعد- مما يدل على أثر البيئة في تشكيل الاتجاهات الثقافية والوجدانية للفرد، خاصة في المجتمعات التي لم تشهد الثورة التكنولوجية وزيادة نسبة التحضر في عصرنا الحالي والذي يقل فيه ارتباط الفرد بالبيئة بشكل كبير.

وبالرغم من ذلك فإن النساء يشقيهن ما يعاني منه الرجال من مصاعب وأهوال ومتاعب من جراء «الغوص» تلك المهنة القاسية. فينشدن :

توب توب يابحر

توب توب

هات الغاصة والسيوب

يانواخذهم لا تصلب عيهم

ثرى البحر بارد وغصب عليهم

أي : يانوخذا لا تضغط على البحارة فالبحر قد أصبح باردا ولا يستطيعون الغوص فيه. وهن بذلك ينبهن إلى أن الظروف المناخية لم تعد تساعد على الغوص فلماذا لا توقف يانوخذا عملية الغوص وتعود بالغواويص إلى البلاد.

وهنا فإن الشكوى لا تكون للنوخذا فقط فهن يشتكين أيضا إلى أمير البحر (السردال) الذي لا تقفل السفن إلا بأمره فهو الذي يحدد موعد القفال فينشدن :

تـوب تـوب يـا بـحــــــــر

توب توب

إبـراهـيـم يـامـــــــشـكـانـا

ويـــن خـــلـيـــت رزايـــانــا

خليـــــتـــــهم في لـفـــان

يرعـــون حـشـيـش قطـيـفـان

عـــسى هيـــر يغـــوصـــونه

مـــا يلقـــون فـــيـــه مـــحـــار

تـوب تـوب يـابـحــــــــر

توب توب

وتلك الشكوى تستعطف فيها النساء «سردال البحر» في محاولة منهن لكي يرق قلبه على أولادهن. ويسألنه عن مصيرهم وأين تركهن ثم يدعون عليهم بأن لا يجدوا المحار الذي يسعون إليه وجعلهم يتأخرون بالعودة. ويسبون السردال لأنه هو أساس التأخير فيقولون:

يـالخنفـــــســـــانه يـــري

إبـــراهـــيـــم مـــن آذانـــه

أي أيتها الحشرة الصغيرة اذهبي إلى إبراهيم وجريه من آذانه وعودي به رغما عنه. وهذا الاستخدام للكلمات الطريفة قد سبق وأن أشرنا إليه وإلى أهدافه.

بعد التخويف والشكوى والاستعطاف تكون الشعلة قد قاربت على الإنتهاء وهن يركضن بها على ساحل البحر جيئة وذهابا -كما سبق وان أشرنا- فتتجه السيدة الحاملة للكنبورة أو الجريدة المشتعلة إلى البحر وهي تركض بأقص سرعتها والباقين يركضون خلفها ويمسكون بها ويغطسون الشعلة في مياه البحر. وبذلك تتم عملية كوي البحر.

وعملية الركض على ساحل البحر تتم من منطقة «رميله» حتى فريج «الخليفات» وكل فريج أي حي يقوم بإشعال الكنابير ويكوم الألواح والچن.. الخ. ويشعل «الصبوه» ويتراكض الجميع وهم يمسكون بأيديهم الخوص والسعف ويلوحون بها وهم يغنون :

سعور نعور   لا خليت دقل ولا دستور

يريدن الهواء أن يدور وتثور الرياح ويعود البحاره. ويشارك الجميع في هذا الطقس أما بحمل السعف المشتعل أو بالتصفيق وبعضهم يلبس ملابس عتيقة كنوع من المشاركة في تلك الطقوس. وعلى الرغم من أن الفرجان بعيدة عن بعض نسبيا إلا أن الممارسة الجماعية لهذا الطقس تبرز -كما سبق وأن أشرنا- من الأضواء المتعددة في كل جانب من الشاطئ. وهذا الطقس يمارس في معظم مدن قطر الساحلية آنذاك وفي نفس الفترة الزمنية (موعد القفال).

وتتشابه الأغاني المرافقة مع اختلافات نسبية حسب الأمكنة والأسماء. وقد تكون هناك بعض الاختلافات في كيفية تطبيق الطقس. فبعضهم لا يشعل الجريدة وإنما يبلها بالماء ثم يغطسها في البحر. مع ذلك فهم يغنون أثناء القيام بعملية تغطيس الشعلة في البحر:

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

يابحرنا يالوايد   هات خشب من مايد

يابحـرنا يالبيِّد   هات خشب السـيد

تأديب وتمجيد في نفس الوقت. ولا يستخدمون مع الغناء أي أداة أو آلة موسيقية، كان التصفيق فقط مع الغناء. وفي بعض الحالات النادرة تقوم النساء بالضرب على الأبياب (علب معدنية) أثناء غناء (توب توب يابحر).

وعملية إشعال النار في سعف النخيل والتلويح بها مع الغناء كانت تظهر أيضا في مناسبة أخرى وأن كانت بصورة محدودة جدا وذلك عندما يكتمل شهر صفر. حيث يتم إشعال السعف ويغنون :

ظهر صفر   يانبي الله

أيضا في أيام الأعياد عندما يجدن أن الهواء ساكن والحر شديد فإنهم يقومون بحرق عسو (أي جريدة) مع الملاحظة بأن تطبيقات مثل هذه الطقوس محدودة جدا بخلاف طقوس القفال التي تتميز بالشيوع والعمومية.

وتجتهد النساء كثيرا في طقس كي البحر بالركض والغناء بأصوات عالية. وهذا كله من أجل أن تهب الرياح. وتلح النساء كثيرا في هذا الطلب الغريب وبعقيدة راسخة بأنها ستهب كلما اجتهدن في تطبيق تلك الطقوس.

ثالثا : قذف البحر بحجارة وتراب المقبرة :

هناك طقس ثالث غريب تمارسه النساء من أجل القفال وهو أحد الطقوس الرئيسية بعد تغطيس القطة وكي البحر. وهو قذف البحر بحجارة مأخوذة من مقبرة أو من ترابها في أحيان أخرى. حتى يهيج البحر أيضا وتثور الرياح. وبعد قذفها تنشد إحداهن والبقية تردد وراءها مع التصفيق والتمايل بالأجساد بدون مرافقة من دف أو أي آلة موسيقية. مجرد التصفيق مع الغناء:

توب توب يابحـــــــر

توب توب

شـــهـــرين والثـــالث دخل

شـــهـــرين والثـــالث دخل

مـا تخـاف من الله يابحـر

ياحصاه المقبرة

هاتي الهـــوا والغـــبـــره

أو

يـاتـراب المقــــــبـــــرة

هات الهـــوا مع الغـــبـــرة

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

هات الغـاصـة والسـيــوب

وحين تقول المنشدة:

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

تردد المجموعة : هات الغاصة والسيوب... وهكذا.

ويستمر الاستخدام السابق للأناشيد في تسمية بعض النواخذه فيقلن :

يابحونا جيبهم   خاطفين بجيبهم

ياحصاة المقابر   هات على بن جابر... وهكذا.

أغنية أخرى :

يـاتـراب المقـــــبـــــرة

يـيـب هـوانـا بغـــــبـــــره

قفل الغواويص من جدام[٢٣]

لا تـخـلـيـــــــهم عـلـى ورا

فهن يعتقدن بأن تراب المقبرة أو حصاة المقبرة ستؤدي إلى إثارة الرياح والغبار عندما يقذف البحر بها. ويطلبن منها أن تساعد في تقفيل الغواصين للغوص. ويطلبن من الرياح أن تقوم بدفعهم إلى الأمام، أي إلى البلاد فالرياح الشمالية عندما تهب سوف تدفع الجميع إلى العودة إلى الشواطئ، ولذلك هن يطلبن منها أن لا تترك أحدا في الخلف.

وتظهر في الأغاني التي تصاحب قذف البحر بحصى المقبرة صيغة الجمع عند طلبهن للرياح بأن تثور مثل :

هات هوانا بغـــــبـــــرة

وأحيانا بصيغة تعود على الغواصين :

هات هواهم بغـــــبـــــرة

أي أن يهب الهـواء على الغـواويص. وهذا تخـصـيص وتحـديد لمن يريدون أن تهب عليـه الرياح. أما أغلب الأناشيد فأنها تأتي بدون تحديد لمن ستهب عليه الرياح :

هات الهـــوا والغـــبـــرة

أي أن تهب بشكل عام وبدون تخصيص.

هذا ولا يقتصر الطلب بأن تهب الرياح بواسطة حصى المقابر أو ترابها فـهن لا يتركن شيئا يرين أنه قد يساعد على ذلك إلا وطلبن منه خاصة الأشيـاء الوثيقة الصلة بالبحر، من ذلك «حصى الياروف»(٢٤) فينشدن:

تـوب تـوب يـابحـــــــــر

توب توب

يا حـــصـــاة اليــــاروف

قـــوديهم قـــود الخـــروف

ياحــــصـــاة الويـل يوف

قـــوديهم قـــود الخـــروف

ياحـــصـــاة المقـــبـــرة

هات الهـــوا والغـــبـــره

حـــطـيـــنـــا الحـــنـــة وبـــار

نشكيـــهم عند الجـبـــار

عـــسى هيـــر يغـــوصـــونه

مـــا يلقـــون فـــيـــه مـــحـــار

وتكرار التعبيرات المتشابهة في كل طقس يمارسنه ناجم عن وحدة الهدف ووحدة المشاعر. هذا بالإضافة إلى التعبيرات الطريفة كالتي وردت في الأغنية السابقة «ياحصاة اليا روف قوديهم قود الخروف» حيث يطلبن من الحصاة أن تقود الغواصين كما تقاد الخرفان عنوة. فهن لا حيلة لهن سوى الطلب من وسائل أن تساعدهن في عودة الغواصين وهي وسائل بسيطة لا قدرة لها على فعل تلك الامور. إلا أن الاعتقاد بالماورائيات والقوى الخارقة التي تسكن بعض الظواهر الطبيعية وبعض الأشياء والمواد والحيوانات التي لها حسب اعتقادهم قدرات عجيبة تكون مسكونة بأرواح وأمور غيبية كالجن مثلا، ذلك الاعتقاد الذي يظهر في العديد من المناسبات والظروف التي يمر بها السكان ويعجزون عن مواجهتها أو تقديم تفسيرات منطقية لها. وكان لجوئهم إليها في تنفيذ طقوس القفال كقيم موروثة وساذجة مرتبطة بالطبيعة ولا تخضع لقوانين المنطق، وإنما تعبر عن البناء القيمي للمجتمع المتأثر بعمليات تبادل ثقافية وتراثية، نتيجة عدة عوامل أهمها الاحتكاك الحضاري والهجرات المختلفة وتنوع الأصول الاجتماعية وخلفياتها الثقافية. ورغم تجانس الجزء الأكبر من السكان عرقيا وثقافيا إلا أن ذلك لم يمنع من دخول ثقافات أخرى إلى المجتمع نتيجة العمالة الموسمية التي تفد إلى البلاد من الساحل الفارسي ومن بادية شبه الجزيرة العربية ومن عمان وأيضا نتيجة جلب الأفارقة للعمل كعبيد وجواري... إلخ. كلها عوامل قد ساعدت على ظهور ثقافة عبارة عن مزيج من جميع تلك الخلفيات وعمليات التبادل الثقافي بين الفئات الاجتماعية المختلفة. وأن اختلفت مستويات التأثير من عامل إلى أخر. هذا بالإضافة إلى عامل أساسي هو كون الإنسان لديه ميل فطري إلى الإيمان بقوى خارقة تشعره بالرهبة خاصة بالنسبة للظروف المناخية (كالهواء والامطار والرعد... الخ) وبالنسبة لعالم الغيبيات كالإيمان بوجود الجن وقدراتهم التي تفوق قدراته.

ويظهر الايمان «بالجن» قويا لدى السكان في تلك الفترة. فهم يعتقدون أنها تسكن في

المقابر وفي البحر فهم يعيشون في أعماقه ويغسلون ملابسهم وأوانيهم فيه ويستحمون به. هذا وإذا أرادت الجن الظهور بين الناس فهي تظهر في شكل حيوانات وخاصة في شكل الخروف أو الحمار.

لذلك فإن ممارسة تلك الطقوس ستثير العفاريت والجن التي تسكن البحر مما سيساهم في إثارة الرياح المطلوبة. وفي بعض الحالات لا يتم جلب حصى من المقابر أو تراب بل يغنون فقط ياحصاه المقبرة.. وقد يشارك الأطفال أحيانا في عملية قذف البحر بالحجارة الموجودة على الشاطئ أثناء أداء هذا الطقس.

رابعا : طقوس أخرى :

هذه الطقوس نادرة ولا تمارس بشكل شائع وإنما تخص بعض المناطق وبعض الفئات التي قد تكون أكثر تأثرا بتراث جماعات أخرى غير محلية.

١ - قرف السلحفاة :

تأخذ النساء أحيانا «قرف» كبير كان لسلحفاة ضخمة ويملئنه بالأعواد الخشبية والألواح وخوص النخيل وتشعل النيران بها ثم يدفعنه إلى البحر وهو يغنين هذه الأغنية :

ما حلا الخشب(٢٥) ياخوي

لين لزت(٢٦) السيف

كلها صبيان وتير(٢٧) المياديف

مره مفاصيخ(٢٨) ومره ملابيس

ولا نعلم الهدف من دفع «قرف» السلحفاة في مياه البحر وهل هو تشبيه لسفن الغوص التي ترغب المؤديات لهذا الطقس بمشاهدتها وهي ترسو بقرب الساحل ويشرن إلى أنه من أجمل المناظر. وخاصة منظر البحارة وهم يجرون المجاديف.

ويلاحظ استعمال «الخوص أو سعف النخيل» في معظم تلك الطقوس ولابد أن لذلك دلالة معينة.

ويتم تطبيق هذا الطقس (دفع قرف السلحفاة المشتعل في مياه البحر) عندما يتأخر الغواصين بالعودة فتقلق النساء فيلجأن إلى ممارسة مثل تلك الطقوس الغريبة.

٢ - حلب الحليب :

من ضمن الطقوس الغريبة في القفال أن تقوم سيدة بحلب الحليب من ثديها على حصاة المقبرة قبل قذفها في البحر. ولا تكون سيدة عادية بل يجب أن تكون سيدة طاهرة ومستورة وسمعتها طيبة حتى يهيج البحر.

وفي بعض الأحيان يتم حلب الحليب في مياه البحر مباشرة وتفسيرهن لذلك هو كون الحليب ذو لون أبيض ولذلك فإن البحر سيهيج عندما يحلب فيه. وقد يرتبط تبقيع لون القطة بالحناء بهذا المعتقد. فاللون الابيض قد تكون له دلالته في هذا المجال ومع ذلك لم نستطع الحصول على تفسير واضح حول ذلك المعتقد عند الإخباريات.

٣ - غويه :

أحد الطقوس وهو نادر التطبيق عن طريق البحث عن منزل إحدى النساء السيئات السمعة (غويه) ويقمن برمي الأوساخ وخاصة (البراز) على باب بيتها فتخرج غاضبة وتلغّي. فإذا لغت فأن ذلك سيؤدي إلى هبوب الرياح المطلوبة حسب اعتقادهن.

٤ - تغطيس سيدة عجوز :

إذا غطسوا القطة ولم يؤد ذلك إلى إثارة الرياح فإنهن (في بعض الحالات) يأخذن عجوز إلى البحر ويغطسنها في مياهه ويتركون رأسها ظاهرا ويغنون (توب توب يابحر). وإذا كانت لا تستطيع المشي فإنهن يضعنها في جفير ويحملنه إلى البحر والعجوز لا يظهر سوى رأسها من الجفير ويغطسنه في البحر ويمسكن الرأس بأيديهن ويغنين «توب توب يابحر». ويعتقدن أن ذلك سيؤدي إلى إهاجة البحر كما سبق وان ذكرنا.

يستمر إجراء تلك الطقوس لعدة ليال. فإذا قاموا بتنفيذها ولم يعد الغواصين إلى البلاد يقررون القيام بها مرة أخرى في الليلة التالية وهكذا. وقد يقومون بإجرائها ثلاث ليال متتاليات. وذلك لأعتقاهن بأنهن إذا لم يقمن بهذه الطقوس فإن الغواصين لا يسرعون بالعودة وإنما يعودون في الوقت الذي يريدونه أو على الأرجح الوقت الذي يقرره السردال. وخاصة إذا

ما كانت الظروف الجوية مواتية للغوص فيتأخرون قليلا لذلك فالنساء يقررن أن يساهمن في الإسراع بعودتهم بواسطة إثارة الرياح - لكي لا يستقيم لهم الغوص - بالطقوس التي يمارسنها على ساحل البحر.لذلك فأنهن يكررن ممارسة تلك الطقوس حتى يعود البحارة. كما ينوعن فيها فإذا لم ينفع تغطيس القطة يجرب كي البحر وقذف حجارة المقبرة.. الخ، وتكرر الطقوس مجتمعة في كل ليله، فإذا لم تفد يلجأن إلى طقوس أخرى غير شائعة مثل تغطيس عجوز بدلا من القطة.

مع ذلك فإن الاحتفال بتلك الطقوس لا يتخذ شكلا جديا صارما وإنما يغلف بالفكاهة واللهو. ويؤثر إشتراك الأطفال على شكل الاحتفال حيث يسوده الهرج والمرج والصراخ. هذا بالإضافة إلى قيامهم بتقليد الكبار فيأخذون قطة إلى البحر ويمارسون عليها الطقس الذي يصنعه الكبار «بسوس يامو ياوّ الغواويص ولا ما ياوّ» وأيضا يقومون بإشعال صبوه من النار ويغنون «توب توب يابحر» كما يشاركون الكبار أثناء ممارستهم لتلك الطقوس ويقومون بمطاردة حاملة «الكنبوره» على طول الساحل مع السيدات والفتيات والنيران تشتعل في الكنبوره وتتناثر حولها حتى تقترب الشعلة من نهايتها فيقومون جميعا بامساكها وتغطيسها هي والشعله.

كذلك من ضمن الطقوس التي يمارسها الأطفال عند تأخر الغواويص هو حمل أحد الصناديق الضخمة (صندوق مبيت)[٢٩] والقيام بغسله وتعريضه للرياح الشمالية. ويعتقدون أن ذلك سيؤدي إلى إثارة الرياح وتقفيل الغواويص.

وبعد الانتهاء من أداء تلك الطقوس تعود النساء إلى البرايح والبيوت يتسامرن وبعضهن يرادين ويغنين. والبعض الأخر يعدن وهو يصفقن بإيديهن ويطرقن على الأبياب. مما يوحي بوجود جو من الاحتفال والتسريه. فلقد اقترب موعد العودة والأهالي فرحين بذلك. كما أن القيام بتلك الممارسات كان يساعد على التعويض والتسرية عن النفوس.

طقوس يمارسها الغواصين :

هذا ولا تقتصر ممارسة طقوس معينة من اجل العودة على النساء فقط إذ أن الغواصين أيضا يقومون بممارسة طقوس شبيهة وهم في عرض البحر يمارسون مهنة الغوص في أعماق الهيرات.

عندما يقترب موعد القفال يبدأ الغاصة وباقي طاقم السفينة بالتململ من العمل بسبب طول الفترة التي قضوها وهم يمارسون تلك المهنة الشاقة من الصباح حتى المساء. وتظل أعينهم تبحث في الافق عن اللون الاحمر (لون العلم القطري) الذي يدل رفعه عن تقفيل الموسم والعودة إلى البلاد. فإذا اقترب الموعد، ودلالته تغير الطقس وبرودة المياه، ينتظر البحارة الإعلان بفارغ الصبر. ولذلك تجدهم يلجأون إلى ممارسات غريبة يعتقدون بأنها ستؤدي إلى هبوب الرياح الشديدة فيضطر السردال إلى إعلان القفال. وفي بعض الأحيان تمارس تلك الطقوس (أو بالأحرى طقس واحد) من أجل (اليداف) أي عودة السفينة إلى البر في أثناء الموسم أي قبل حلول موعد القفال الذي يعني نهاية الموسم.

طقوس القفال :

أولا : يمسك البحارة بسمكة «البزيمي ويقومون بتكحيل عينيها ثم يطلقونها وسط أمواج البحر ويعتقدون أن ذلك سيؤدي إلى هبوب الرياح. وهذا الطقس يشبه الطقس الذي تمارسه النساء في البر ولكن هناك القطة وهنا البزيمي.

ثانيا : يقوم البحارة بممارسة طقس غريب جدا خاصة عندما تمر عليهم فترة طويلة وهم يمارسون الغوص وتتقرح جلودهم في أول السّنة ولم يرتاحوا نتيجة هبوب رياح أو أي امر آخر في أحد البنادر -كما سبق وأن أشرنا- كما يمارس أيضا من أجل القفال.

حيث يقوم البحارة بصيد سمكة البزيمي بالذات أو البحث عنها في «القرقور» ثم يبدأون بإعدادها لممارسة الطقس. فتغسل وتكفن مثل الميت. ويحدد الغاصة وقت الصلاة حيث يكون لدى الغاصة علم بأن هذه التبه (الغطسة) ستكون من أجل الصلاة على البزيمي فينزلون من الجهتين ويقوم أحدهم بالوضوء ثم يصلي صلاة الميت في قاع البحر والغاصة

معه. وبعد التسليم يقومون بدفنها ووضع الشواهد على قبرها ثم «ينبرون» مرة أخرى.

وهذا الطقس يمارس -كما سبق وأن ذكرنا- من أجل هبوب الرياح التي كانت عاملا أساسيا في انقطاع الموسم لفترات معينة يرتاح فيها البحارة. هذا بالإضافة إلى دورها في تعجيل موعد القفال.

ومن الطريف ان ذلك يتم بدون علم «النوخذا» حتى لا يثور عليهم فهو على العكس منهم يريد أن يستمر الغوص حتى يجني لؤلؤا أكثر في حين أن الغاصة بالذات يشق عليهم العمل المتواصل ويرغبون بالعودة. فلو علم بما يمارسونه لعاقبهم، لذلك فإن الطقس يمارس بدون علمه في قاع الهير.

الخلاصة

مما سبق نجد أن أغلب المعاناة والمشقة والقهر تقع على عاتق الغاصة وباقي العاملين على ظهر السفينة وعلى أسرهم في البر، بسبب مشقة العمل عند البحارة وقلة الموارد وتكاليف الحياة لدى الأسر والأهالي. لذلك فإن الجميع يلجأ إلى ممارسات طقوسية غريبة تساعد الجميع على التخفيف من معاناة الانتظار ومشقة الحياة. وتمثل موروثا شعبيا اقترن بحياة السكان اليومية وظروف بيئتهم الشاقة، والتي ساهمت في إثراء الحياة الثقافية في المنطقة بأشكال ثقافية متنوعة شكلت في مجموعها الهوية الحضارية التي تميزت بها شعوب المنطقة.

هذا ولا يخفى ما لتلك الطقوس من دور في نقل القيم والمعتقدات الشعبية لجميع فئات المجتمع، ودور تلك الفئات واسهامها في ذلك التراث الشعبي واختلاف درجة الإسهام تلك بالنسبة لكل فئة اجتماعية كما سبق وان أوضحنا. حيث اقتصر دور البعض (سيدات المجتمع ذوات المكانة الاجتماعية) على المشاهدة والتأييد المعنوي. حيث تشير المعلومات إلى أن المستهلك الأكبر لذلك التراث الشعبي هي فئة الخدم حيث يقمن بدور رئيسي في ممارسة تلك الطقوس مع الوضع في الاعتبار أن «السيدات» اللاتي أشرنا اليهن أعلاه يلعبن دور لا يظهر في الواجهة، مع ذلك فهو دور لا يستهان به حيث يقمن بإرشاد وتوجيه المجموعة التي تقوم بأداء تلك الطقوس.

لقد كانت العلاقة واضحة بين تلك الطقوس الشعبية والمناسبة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تجرى من أجلها. وهي «تقفيل موسم الغوص وعودة الأهل».

أن أسلوب صيد اللؤلؤ - بنظامه الاقتصادي الصارم - قد أدى إلى قيام نظام اجتماعي وثقافي يحمل خصوصية ذلك النظام الاقتصادي. حيث نجد أن مناسباته الاقتصادية تتحول إلى مناسبات اجتماعية وثقافية تحمل صورا وقيما وفنونا مستوحاة من البيئة ومن ذلك النظام الانتاجي.

وبرزت الطقوس التي تم شرحها كأحد التعبيرات الإنسانية المباشرة والتي تعبر عن موقف الإنسان من البيئة المحيطة به وظروفه المعيشية والمرتبطة بتقاليده وعاداته ومعتقداته. وفي الواقع فإن تلك المناسبة ما هي إلا انعكاس لثقافة وعادات وفنون ذلك المجتمع في تلك الفترة.

لقد كانت الأغاني المرافقة لتلك الطقوس لون من ألوان الفنون والموسيقى التي تميز بها المجتمع آنذاك. والذي كان يشهد تنوعا موسيقيا نفتقده الآن حيث انصهرت معظم تلك الفنون، وظهرت أشكال وقوالب موسيقية لا تعبر عن لون أو نمط موسيقي معين، وإنما هي خليط لا يمكن تحديد هويته.

لقد تميزت تلك الفترة بانتشار أنماط عديدة من الفنون الموسيقية والأدائية. فنون تعتمد على الغناء الفردي أو نظام الادوار أو نظام الغناء الجماعي أو مغني وكورس (رداده) مصحوبة بموسيقى أو بدونها. منها (البداوي أو الفراقي، السيفي، فنون الفجري، الشيلات، الخماري، السامري، الطنبوره.. الخ) وهناك فنون ذات مناسبات شعبية كالعرضة والمراداه والتوب توب) ومناسبات دينية (كالمولد) وأغاني العمل (مثل نزف المياه من العيون والاحتطاب والعمل في الغوص وإنزال البضائع من السفن وطحن ودق الحبوب) وأغاني السفر (الانتقال من مكان إلى آخر بواسطة الجمال). هذا بالإضافة إلى أغاني المناداة على البضائع (كبضائع المشموم وبضائع أخرى وأغاني المناداه على الضالة... إلخ).

هذا بالإضافة إلى فنون وأدبيات متنوعة تترافق مع مناسبات ومراسيم اجتماعية وطقوسية منها ما يختص بمرحلة الطفولة (كالختان والختمة والنون... الخ) ومنها ما يخص الكبار (أغاني المرأة الحامل وأغاني الزفاف) وألوان أخرى عديدة ومتنوعة كالأغاني المرافقة للألعاب الشعبية الشائعة والموسمية.. إلخ. هذا بالإضافة إلى أدبيات الحكاية الشعبية والألغاز وتبادل الأشعار والمطارحات الشعرية. مما يوحي بتنوع وثراء الثقافة المحلية.

الهوامش

(١) المعجم الوسيط ، المجلد الثاني، ص ٧٥٢.

(٢) نيوم : نجوم.

(٣) الصفاري: هو الصفري وهي كلمة تطلق على الفترة الزمنية ما بين نهاية فصل الصيف وبداية فصل الخريف أو القسم الأول من فصل الخريف.

(٤) يسقى : متى. أي متى تتمتع عيناي برؤية مناها.

(٥) الماس : يقصد به هنا اللؤلؤ.

(٦) هرجته : كلمته.

(٧) الابتر : المقطوع الذنب.

(٨) الخريج : عين الماء المالحة.

(٩) يودين : مفردها يود وهي قربة ضخمة من الجلد تملأ بالماء وتنقل على ظهور الحمير.

(١٠) شروا : مثل.

(١١) يجتر : يلوك العلف بأسنانه .

(١٢) الجيب : هو الشراع الصغير الذي ينشر عندما يكون المكان قريبا فيستعيض النوخذا عن الشراع الكبير بالشراع الصغير وهو «الجيب».

(١٣) اليديد : الجديد.

(١٤) البيد : الجيد.

(١٥) الوايد : الكثير .

(١٦) جمود : الشيء الحار الذي يدفئ.

(١٧) آفاديه : قلبي. والآفاد هو القلب والفؤاد.

(١٨) بار : اضمحل لونه.

(١٩) خظ : حرك أمواج البر واجعلها تهيج.

(٢٠) خرط : وهي المادة الرخوية الموجودة في المحار.

(٢١) كان سردال البحر في تلك الفترة النوخذا القدير إبراهيم النصر.

(٢٢) رزايانا : أولادنا.

(٢٣) جدام : أمام.

(٢٤) الياروف : هو الشرخ والذي هو عبارة عن شبك في اطرافه العلوية كرات من الفلين وفي أسفله حجارة تساعد على تثبيته في الأرض وهي المذكورة في الأغنية. والياروف هو شبك لصيد الأسماك.

(٢٥) الخشب : السفن.

(٢٦) لزت : اقتربت ورست قرب الساحل.

(٢٧) تير : تجدف.

(٢٨) مفاصيخ : بدون ملابس فمن المعروف أن البحارة لا تستر اجسادهم سوى قطعة واحدة تسمى «الاوزار» تستر النصف السفلي من جسم البحار.

(٢٩) الصندوق المبيت : صندوق من الخشب السميك مزين بتشكيلات من النقوش المحفورة أو مطعم بفصوص ملونة أو ذات لون ذهبي. وكان يستخدم قديما في حفظ الملابس أو الأغراض الثمينة. ولا يزال بعض القطريين يجيدون صناعة الصناديق المبيته ذات الأشكال الجميلة.

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٤٩ لسنة ١٩٩٧
الرقم الدولي (ردمك) : ٢ ـ ٢٨ ـ ٢٠ ـ ٩٩٩٢١

طبع في المطبعة الأهلية
AL-AHLEIA P. PRESS Doha - Qatar

من مطبوعات إدارة الثقافة والفنون ـ دولة قطر